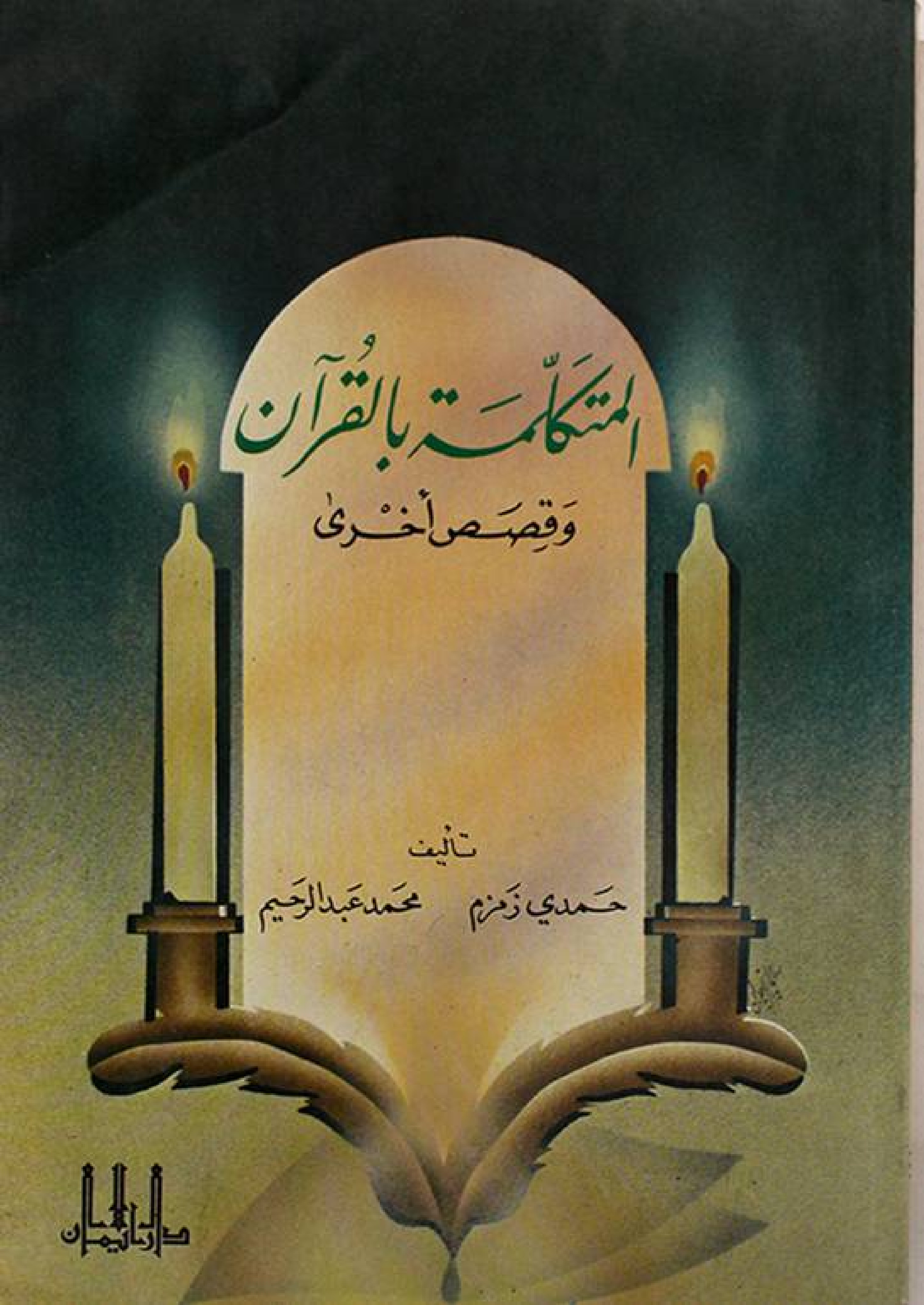
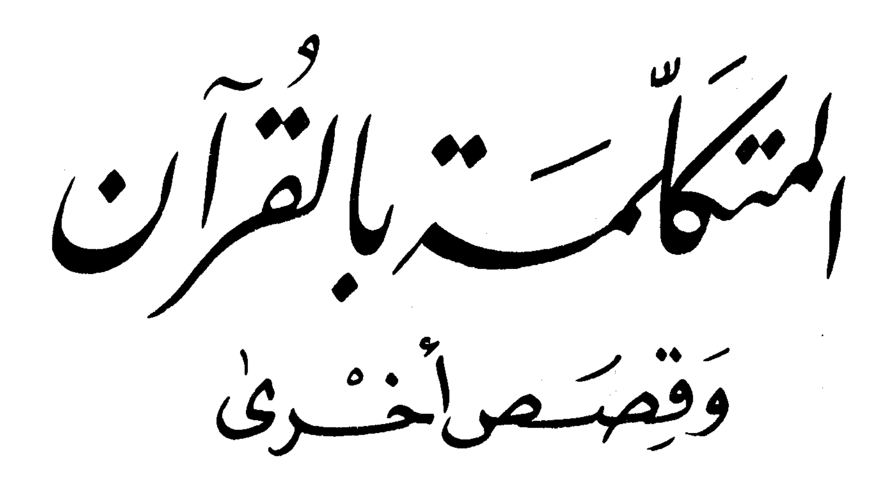

المتكلمة بالقرآن
وقصص أخرى
تأليف
حمدي زمزم
محمد عبد الرحيم
دار الإيمان



تأليف

حمدي زمزم محمد عبد الرحيم

دار الإيمان

للطباعة * والنشر * والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

* إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *

- صدق الله العظيم -

سورة الحج - الآية ٣٨ -

دار الإيمان

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

● دمشق - سورية - شارع مسلم البارودي -

● ص.ب ١٠٠٦٥ دمشق - هاتف ٢٤٣٣٨٦

● بيروت ص.ب: ١١٣/٥٣٣٤ - تلكس: ٢١٦٣٢ أوصاف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ باسمك نعتزم، وبركنك نعتصم، وبحولك نستدفع الوهن، ونستعدي على الزمن، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، لك الحمد في الأولى والآخرة، إنك أنت ملهم القول، وولي التوفيق.

منذ سنين طويلة، وأنا أفكر في وسيلة أقدِّم بها «قصة المرأة التي كان حديثها القرآن». فعمدت إلى تقديمها في بعض المجلات العربية. لكن المجلة سرعان ما تتلف وتُهمل. لذا أحببت أن أُقدمها في كتاب.

ويوم خططت القصة في الكتاب الذي حمل اسمها، دأبت أغوص في لج كتب التراث باحثاً عن بعض القصص الرديفة والهادفة والبناءة. وفعلاً وجدت عدداً لا يُحصى منها ولا يُعد. لذا انتقيت بعضاً منها، وثبتها في هذا الكتاب، بعد أن أعدت صياغتها، وجعلتها على شكل حواري تمثيلي ليسهل استيعابها وفهمها وحفظها، وشرحت غريب كلماتها، والأعلام الواردة فيها، لتتم الفائدة.

والذي يتأمل هذا العمل ويمعن النظر فيه ويدققه، يجد أن نصيب المرأة العربية فيه غالب على نصيب الرجل، فهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدلّ على أن المرأة كانت ولا تزال لها العظمة الوادعة الرائفة، والنفس الأبية النقية.

يقول المؤرخ الانكليزي كلاي (CLAY): المرأة العربية منذ القدم تجاذب الرجل سياسة الأمة، وولاية الأمر، وجد العمل، وشؤون الحياة.

فالمرأة نصف المجتمع فلقد كان في المجتمع العربي المرأة الطبيبة والمرأة العالمة والمرأة الموجهة والمربية.

«ولقد حفل تاريخ العرب والإسلام بآلاف النماذج الإنسانية التي جسدت من خلال مواقفها وبطولاتها كل القيم العربية، وأصبحت نماذج متجسدة تحتذي بها الأجيال عبر العصور المتلاحقة».

ويردف قائلاً:

«لقد شهد التاريخ العربي للمرأة بسمو مكانتها، فقد ساهمت بكتابة التاريخ، واحتضنت كل المتغيرات، وظهرت على مسرح الحياة العربية أماً حافظت على نقاء الأصول، وكرم النسب، وطهارة الأرحام، إنها الأم التي أنجبت الأنبياء والملوك وأعظم الرجال».

نعم...

فلم تمتلك المرأة العربية قوة النفس ورجاحة العقل، وقوة الحجة، وعزة الجانب، وفصاحة اللسان، إلا بالإسلام الذي أفسح أمامها الطريق، وأزال العقبات والعثرات، وخلصها من ظلمة الوأد، وأعطاها حق الحياة، فكانت مؤمنة نقية، فقيهة وشاعرة.

لست هنا بالمدافع عن المرأة لإنقاص حق الرجل، إنما أسوق حديثي إلى المرأة والرجل معاً، فإن صلاح كل من الفريقين لا يقوم إلا على صلاح صاحبه، والتجاوز له عن حقه الذي شرع له.

ولقد أنشأنا كتابنا هذا مستعينين بالله العلي القدير ومستهدين لهداه، فهو وحده ولي التوفيق.

والحمد لله أولاً وأخيراً

دمشق الأول من نيسان سنة ١٩٨٨

حمدي زمزم

محمد عبد الرحيم

● المتكلمة بالقرآن ●

صورة طريفة لسيدة مؤمنة، آلت على نفسها ألا تتكلم إلا بالقرآن الكريم. يروي هذه القصة عبد الله بن المبارك[1]. على أنها واقعة حقيقية. حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة... ويقول:

«خرجت حاجاً إلى بيت اللّه الحرام، وزيارة قبر النبي المصطفى محمد ﷺ. فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد، فتميزت ذاك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف.

عبد اللّه : السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته.

العجوز : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[2].

عبد اللّه : يرحمك اللّه... ما تصنعين في هذا المكان؟.

العجوز : ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾[3].

فعلمت أنها ضالة عن الطريق.

عبد اللّه : وأين تريدين؟.

---

(١) عبد الله بن المبارك: (١١٨ - ١٨١هـ-٧٣٦ - ٧٩٧)م. أبو عبد الرحمن الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية، كان من سكان خراسان، ومات بهيت(على الفرات)منصرفاً إلى غزو الروم.

(٢) سورة يسٓ الآية ٥٨.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٦.

العجوز : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقصَىٰ﴾[١].

فعلمت أنها قد قضت حجها، وهي تريد بيت المقدس[٢].

عبد اللّه : أنتِ مُذْ كَمْ في هذا الموضع؟

العجوز : ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّاً﴾[٣].

عبد اللّه : ما أرى معك طعاماً تأكلين؟.

العجوز : ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[٤].

عبد اللّه : فبأيّ شيء تتوضئين؟.

العجوز : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[٥].

عبد اللّه : إنّ معي طعاماً. فهل لك في الأكل؟.

العجوز : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَىٰ ٱللَّيْلِ﴾[٦].

فأدركت أنها صائمة.

عبد اللّه : ليس هذا شهر رمضان.

العجوز : ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٧].

عبد اللّه : قد أُبيح لنا الإفطار في السّفر.

العجوز : ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٨].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

(٢) بيت المقدس: هي القدس عاصمة فلسطين، مدينة قديمة تعود آثارها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، فتحها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلماً، فسلمه بطريركها مفتاحها عام ٦٣٨م، وبعد أن احتلها الصليبيون عام ١٠٩٩، حررها البطل صلاح الدين بعد معركة حطين عام ١٢٤٤. والقدس يقدسها المسلمون والنصارى واليهود. فيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة.

(٣) سورة مريم، الآية ١٠.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٧٩.

(٥) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٧) سورة البقرة، الآية ١٥٨.

(٨) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

ولما وجدتها لا تتكلم إلا بالقرآن الكريم. قلت لها:

عبد الله : لم لا تكلمينني مثلما أُكلمك؟.

العجوز : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

عبد الله : فمن أي النّاس أنتِ؟.

العجوز : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2].

عبد الله : قد أخطأت فاجعليني في حل.

العجوز : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[3].

عبد الله : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟.

العجوز : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[4].

فأنخت ناقتي[5].

العجوز : ﴿قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم﴾[6].

فغضضت بصري عنها، وقلت لها:

عبد الله : اركبي..

فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزّقت ثيابها.

العجوز : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[7].

عبد الله : اصبري حتى أعقلها[8].

العجوز : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[9].

---

(١) سورة ق، الآية ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٣) سورة يوسف، الآية ٩٢.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

(٥) أناخ الناقة: أبرك الناقة. يقال: أنخت الجمل فبرك.

(٦) سورة النور، الآية ٣٠.

(٧) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٨) عقل الناقة: ضم رسغ يدها إلى عضدها وربطهما معاً بالعقال لتبقى باركة.

(٩) سورة الأنبياء، الآية ٧٩.

فعقلت الناقة وقلت لها:

عبد الله : اركبي.

فلما ركبت قالت:

العجوز : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١).

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح.

العجوز : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ (٢).

فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر.

العجوز : ﴿فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (٣).

عبد الله : لقد أوتيت خيراً كثيراً..

العجوز : ﴿وَمَا يَذَّكَّرِ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (٤).

فلما مشيت بها قليلاً قلت:

عبد الله : ألك زوج؟.

العجوز : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُم تَسُؤْكُمْ﴾ (٥).

فسكتّ ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة.

عبد الله : هذه هي القافلة فمن لك فيها؟

العجوز : ﴿الْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (٦)

فعلمت أنّ لها أولاداً.

عبد الله : وما شأنهم في الحج؟

العجوز : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٧).

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١٣و ١٤.

(٢) سورة لقمان، الآية ١٩.

(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

(٥) سورة المائدة، الآية ١٠١.

(٦) سورة الكهف، الآية ٤٦.

(٧) سورة النحل، الآية ١٦.

فعلمت أنهم أدلاءَ الركب[1]، فقصدت بها القباب والعمارات.

عبد الله : هذه القباب فمن لك فيها.

العجوز : ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[2]. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[3]، ﴿يَا يَحْيَى خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّة﴾[4]

عبد الله : يا إبراهيم... يا موسى!.. يا يحيى.

فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت:

العجوز : فَٱبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامَاً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾[5].

فمضى أحدهم فاشترى طعاماً، فقدموه بين يدي.

العجوز : ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئَاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[6]

عبد الله : الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها.

الأولاد : هذه أمنا، وإن لها أربعين سنة لم تتكلم إلّا بالقرآن مخافة أن تزلّ[7] فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء.

عبد الله : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[8].

●

---

(١) أدلاء الركب: مفردها دليل: المرشد.
(٢) سورة النساء. الآية ١٢٦.
(٣) سورة النساء، الآية ١٦٤.
(٤) سورة مريم، الآية ١٢.
(٥) سورة الكهف، الآية ١٩.
(٦) سورة الحاقة، الآية ٢٤.
(٧) تزلّ: تخطىء. تنحرف عن الصواب.
(٨) سورة الجمعة، الآية ٤.



● أدب المخاطبة ●

كانت (صدوف) امرأة تأبد[1] الكلام. وتسجع[2] في المنطق. وكانت واسعة الثراء ذات مال كثير.

فأتاها قوم كثير يخطبونها... فردتهم. وكانت تتعمد خطابها في المسألة وتقول: لا أتزوج إلا من يعلم ما أسأله عنه، ويجيبني على حده لا يعدوه. فلما انتهى إليها (حُمْران بن الأقرع)[3]. قام قائماً لا يجلس. وكان لا يأتيها خاطب إلا جلس قبل إذنها.

صدوف : ما يمنعك من الجلوس؟.

حمران : حتى يؤذن لي.

صدوف : وهل عليك أمير

حمران : ربّ المنزل أحقُّ بفنائه، وربّ الماء أحق بسقائه، وكل ما له في وعائه.

صدوف : اجلس.

---

(١) تأبد: الأوابد من الشعر :القصائد الخالدة.

(٢) تسجع: تنطق بكلام منثور مقفى له فواصل كقوافي الشعر. جمع أسجاع.

(٣) حمران بن الأقرع: الجعدي. من فصحاء العرب في الجاهلية، له خبر طويل في مجمع الأمثال، والإصابة.

فجلس . . .

صدوف : ما أردت؟ .

حمران : حاجة . . ولم تك لحاجة .

صدوف : تسرّها أم تعلنها؟

حمران : تُسرّ وتُعلن .

صدوف : فما حاجتك؟ .

حمران : قضاؤها هيّن ، وأمرها ليّن ، وأنتِ بها أخبر ، وبنجمها أبصر .

صدوف : فأخبرني بها؟

حمران : قد عرضت ، وإن شئتِ بيّنت .

صدوف : من أنت؟

حمران : أنا بشر ، ولدت صغيراً ، ونشأت كبيراً ، ورأيت كثيراً .

صدوف : ما اسمك؟

حمران : من شاء أحدث اسماً ، وقال ظلماً ، ولم يكن الاسم عليه حتماً .

صدوف : فمن أبوك؟ .

حمران : والدي الذي ولدني ، ووالده جدي .

صدوف : ما مالك؟ .

حمران : بعضه ورثته ، وأكثره اكتسبته .

صدوف : فمن أين أنت؟ .

حمران : من بشر كثير عدده مردوف[١] ولده .

صدوف : ما ورّثك أبوك؟ .

حمران : حسن الهمم .

صدوف : فأين تنزل؟

حمران : على بساط واسع ، في بلد شاسع ، قريبه بعيد ، وبعيده قريب .

صدوف : فمن قومك؟ .

---

(١) مردوف : من الردف : الراكب خلف الراكب وكل تابع لشيء . وأتباع القوم .

حمران : الذي أنتمي إليهم، وأجني عليهم، وولدت لديهم.

صدوف : فهل لك امرأة؟.

حمران : لو كانت لي لم أطلب غيرها، ولم أُضيع خيرها.

صدوف : كأنك ليس لك حاجة.

حمران : لو لم تكن لي حاجة لم أنخ ببابك، ولم أتعرض لجوابك، وأتعلق بأسبابك.

صدوف : إنك حمران بن الأقرع الجعدي.

حمران : إن ذلك ليقال.

(فزوجته نفسها... وفوضت إليه أمرها).

●

● دعت عليه فأثابها ●

دخلت إمرأة على هارون الرشيد[1] وعنده جماعة من وجوه أصحابه. وبعد أن ألقت السلام قالت:

المرأة : يا أمير المؤمنين.. أقرّ اللّه عينيك. وفرّحك بما أتاك. وأتمّ اللّه سعدك.. لقد حكمت فقسطت، زادك اللّه رفعة.

الرشيد : من تكونين أيتها المرأة؟

المرأة : من آل برمك[2]. ممن قتلت رجالهم. وأخذت أموالهم. وسلبت نوالهم[3].

---

(١) هارون الرشيد: الخليفة العباسي الخامس(١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م).
ابن المهدي والخيزران، ولد بالري وتوفي بسناباذ من قرى طوس (إيران) جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه الهادي. حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكما مع المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية، ثم حمل مرات عليهم بعد خلافته، وأقر الأمن في المقاطعات الفارسية وبين البربر. ازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم. ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل أن يوقع بهم.

(٢) برمك أو البرامكة: أسرة فارسية من بلخ، امتازت بالكرم، تنسب إلى جدها برمك سادن بيت النار ببلخ. كانت مجوسية ثم أسلمت، وتقلد أبناؤها الوزارة في عهد العباسيين ٧٥٠ ـ ٨٠٣. نكبهم هارون الرشيد ونكل بهم لأسباب مختلفة بعدما تعززوا. أشهرهم: خالد بن برمك: عهد إليه السفاح بديواني الجند والخراج، تولى الوزارة ولعب دوراً كبيراً في عهد المنصور. ويحيي بن خالد: مؤدب الرشيد ووزيره، كان له دور في إبعاد الهادي عن الخلافة. الفضل بن يحيي: أخو الرشيد بالرضاعة ومؤدب الأمين ولي أقاليم إيران الغربية، ثم خراسان توفي سجيناً بالرقة. جعفر بن يحيي: قربه الرشيد وولاه مصر وخراسان قتل في النكبة.

(٣) نوال: العطاء أو النصيب.

الرشيد : أما الرجال فقد مضى فيهم أمر اللّه. ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك.

ثم التفت هارون الرشيد إلى الحاضرين من أصحابه وخاطبهم:

الرشيد : أتدرون ما قالت هذه المرأة؟.

الحضور : ما نراها قالت إلا خيراً!!!..

الرشيد : ما أظنكم فهمتم ذلك... أما قولها: (أقر اللّه عينيك): أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت.

وأما قولها: (وفرّحك بما آتاك) فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(١).

وأما قولها: (وأتمّ اللّه سعدك). فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصه
ترقّب زوالاً إذا قيل تم(٢)

وأما قولها: (لقد حكمت فقسطت). فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾(٣).

وأما قولها (زادك اللّه رفعة). أرادت به قول الشاعر:

ما طار طيرٌ وارتفع
إلّا كما طار وقع(٤)

فتعجب الحاضرون من ذلك، وأثنوا على فصاحته.

ثم التفت هارون الرشيد إلى المرأة وقال لها:

الرشيد : ما حملك على هذا الكلام؟

المرأة : إنك قتلت أهلي وقومي.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤.

(٢) ديوان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه صفحة ١١٢ منشورات دار كرم.

(٣) سورة الجن الآية ١٥.

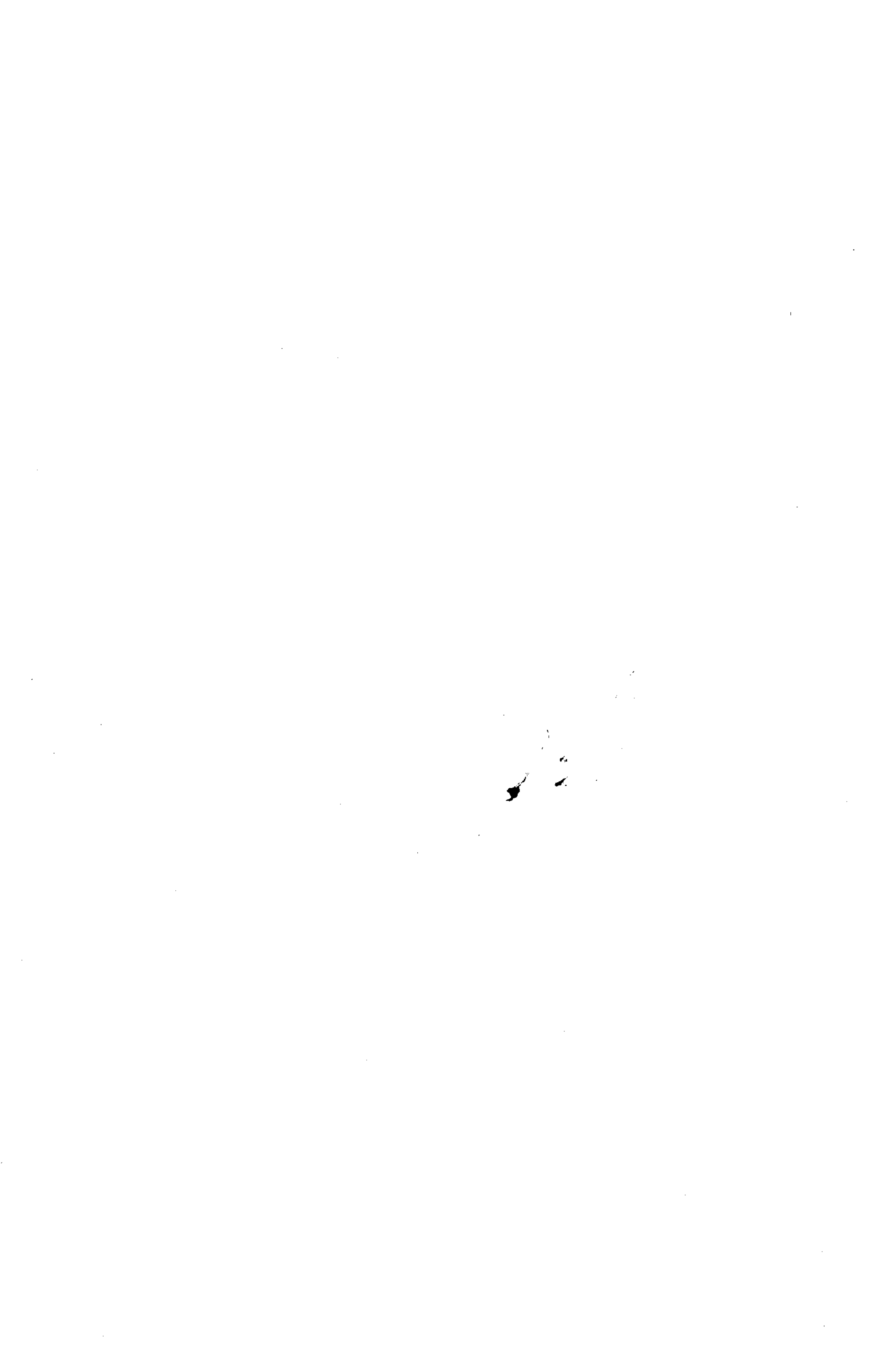
(٤) ديوان الإمام الشافعي صفحة ٦٠ منشورات دار الخير.

الرشيد : ومن أهلك وقومك؟

المرأة : البرامكة.

فأراد هارون الرشيد أن يجزيها ببعض العطايا، فلم ترض. وذهبت لحال سبيلها.

●



● شكوى امرأة فصيحة ●

أقبلت ذات يوم امرأة أبي الأسود الدؤلي[1] على معاوية[2] وعنده وجوه قريش، وأشراف العرب، ومن بينهم أبو الأسود الدؤلي. وقالت:

المرأة : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته، إنّ اللّه جعلك خليفة في البلاد، ورقيباً على العباد، يستسقى بك المطر، ويستنبت بك الشجر، يتوجه لك النداء، وتؤلف بك الأهواء، يأمن بك الخائف، ويرجع بك الجانف[3]، فأنت الخليفة المصطفى، والإمام المرتضى. فأسأل اللّه لك النعمة في غير تغيير، والعافية من غير تعذير.

معاوية : ما حاجتك؟

المرأة : لقد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمر ضاق عليّ فيه المنهج، وتفاقم علي فيه المخرج، لأمر كرهت عاره، لما خشيت إظهاره، فلينصفني أمير المؤمنين من الخصم، فإني أعوذ بقوته من العار

---

(١) أبو الأسود الدؤلي: (٦٠٥ ـ ٦٨٨). شاعر من قبيلة ديل. من أنصار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حضر معركة صفين، إليه ينسب «أصول النحو العربي».

(٢) معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي الأول، زعيم بني أمية ومؤسس السلالة الأموية، اشترك في فتح سورية وحكمها في عهدي الخليفة عمر والخليفة عثمان، عارض الإمام علياً كرم الله وجهه، وقاتله في صفين سنة ٦٥٧ م. فانتهت المعركة بقبول التحكيم، ثم بانتقال الخلافة إليه، اشتهر بدهائه. توفي سنة ٦٠ هـ. الموافق ٦٨٠ م.

(٣) الجانف: جنف عن الحق جنوفاً: مال وجار وظلم، يقول تعالى في سورة البقرة الآية ١٨٢: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾

الوبيل، والأمر الجليل، الذي يشتد على الحرائر[1]، ذوات البعول الأجائر[2].

معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر. . ومن فعله المشهر.

المرأة : هو أبو الأسود الدؤلي.

فالتفت معاوية إلى أبي الأسود وقال له:

معاوية : ما تقول هذه المرأة؟.

أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضاً، ولن يستطيع أحد عليها نقضاً، أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق، وأنا مخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق.

معاوية : قل وأخبرنا عن سبب طلاقها.

أبو الأسود : والله يا أمير المؤمنين ما طلقتها عن ريبة ظهرت، ولا لأي هفوة حضرت، ولكني كرهت شمائلها، فتقطعت عني حبائلها.

معاوية : وأي شمائلها يا أبا الأسود كرهت.

أبو الأسود : يا أمير المؤمنين، إنك مهيجها علي بجواب عتيد[3]، ولسان شريد[4].

معاوية : لا بد لك من محاورتها، فاردد عليها قولها عند مراجعتها.

أبو الأسود : يا أمير المؤمنين. . إنها كثيرة الصخب[5]، دائمة الذرب[6]، مهينة للأهل، ومؤذية للبعل، مسيئة إلى الجار، مظهرة للعار، إن رأت خيراً كتمته، وإن رأت شراً أذاعته.

المرأة : والله لولا مكانة أمير المؤمنين وحضور من حضره من المسلمين،

---

(١) الحرائر: من الحرة وهي الكريمة.

(٢) الأجائر: من جور وهو الظلم. يقال جار عليه في الحكم: ظلمه. فهو جائر.

(٣) جواب عتيد: رد مهيأ وحاضر ومعد، يقول تعالى في سورة ق الآية ١٨ :﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾

(٤) لسان شريد: لسان مستعصي. والشريد: الطريد الذي ليس له مأوى.

(٥) الصخب: الصياح والجلبة.

(٦) الذرب: ذرب فلان: جرحه بلسانه.

لرددت عليك بوادر كلامك، بنوافذ أقرع [١] بها سهامك، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بعلاً، ولا أن تظهر لأحد جهلاً.

معاوية : عزمت عليك إلا أجبتيه.

المرأة : يا أمير المؤمنين، ما علمته إلا سؤالاً جهولاً، ملحاً بخيلاً، إن قال فشر [٢] قائل، وإن سكت فذو دغائل [٣] ليث حين يأمن، وثعلب حين يخاف، وشحيح حين يُضاف. إن ذكر الجود انقمع [٤] لما يعرف من قصر رشائه [٥]، ولؤم آبائه، ضيفه جائع، وجاره ضائع، لا يحفظ جاراً، ولا يحمي دياراً؛ ولا يدرك ثاراً، أكرم الناس عليه من أهانه وأهونهم عليه من أكرمه.

معاوية : سبحان اللّه لما تأتي به هذه المرأة من السجع.

أبو الأسود : أصلح اللّه أمير المؤمنين.. إنها مطلقة، ومن أكثر كلاماً من المطلقة؟.

معاوية : إذا كان رواحاً [٦]، فتعالي أفصل بينك وبينه بالقضاء. فلما كان الرواح، جاءت ومعها ابنها قد احتضنته، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها.

معاوية : يا أبا الأسود، لا تعجل المرأة أن تنطق بحجتها.

المرأة : يا أمير المؤمنين.. هذا ولدي، وفلذة كبدي، كان بطني له وعاء، وحجري له فناء، وثديي له سقاء، ألاحظه إذا قام، وأحفظه إذا نام، فلم أزل كذا مدة أعوام، فلما كمل فصاله، واشتدت أوصاله، وحسنت خصائله، أراد أبوه الآن أخذه مني، وإبعاده عني، فباللّه عليك أنصفني.

---

(١) أقرع: من قرعه: أي عنفه وأوجعه باللوم والعتاب.

(٢) فشر: من الشر.

(٣) دغائل: من دغل: أي دخل وتوارى.

(٤) انقمع: في البيت: جلس وحده.

(٥) رشائه: الرشاء الحبل.

(٦) الرواح: أي العشاء. أي وقت زوال الشمس إلى الليل.

معاوية : قد سمعت مقالتها، فما عندك من الجواب؟.

أبو الأسود : صدقت... ولكني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأريد أن أعلمه العلم، وأفهمه الحكم.

معاوية : ما تقولين في جواب كلامه أيتها المرأة.

المرأة : صدق فيما قاله.. ولكن حمله ضعيفاً وحملته ثقيلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً.

فتعجب معاوية من فصاحتها، وقال لأبي الأسود.

معاوية : ادفع لها ولدها.. فهي أحق به منك.

● الحجاج والأعرابي ●

حـجّ الحجـاج بن يـوسف[1]، فنزل ببعض الميـاه بين مكـة والمـدينـة وقـال لخادمه:

الحجاج : اذهب وتحرّ[2] من يأكل معي.

فإذا براعٍ بين شملتين[3] نائم، فلكزه الخادم وقال له:

الخادم : قم يا هذا... فالأمير يطلبك.

ولما مثل الراعي بين يدي الحجاج قال له:

الحجاج : اغسل يدك وتغدّ معي يا أعرابي.

الأعرابي : دعاني من هو خير منك فأجبته.

الحجاج : ومن يكون ذلك الذي تعنيه بالأفضلية؟

الأعرابي : الله تعالى دعانـي إلى الصيام فأجبت الدعوة.

الحجاج : وفي هذا الحرّ الشديد؟.

الأعرابي : نعم... صمت ليوم أشد حراً منه.

---

(١) الحجاج بن يوسف: (٤٠ ـ ٩٥ هـ) قائد داهية وخطيب بليغ، ولد في الطائف ثم انتقل إلى الشام والتحق بشرطة روح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان، وما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره فقاتل ابني الزبير بن العوام عبد الله ومصعب، وانتصر عليهما. لذلك ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه العراق، فوطد الأمن فيها مدة عشرين سنة،

(٢) تحر: أي ابحث.

(٣) شملتين: من الشملة وهي ثوب يشتمل به جمع شمال.

الحجاج : افطر وصم غداً.

الأعرابي : وهل تضمن لي البقاء إلى غد؟.

الحجاج : ليس ذلك في قدرتي.

الأعرابي : كيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟.

الحجاج : ذلك لأني دعوتـك إلى طعام جيد!

الأعرابي : والله لم تجوَّده أنت.. ولكن تجوِّده العافية.

●

● الملك والغلام ●

كان غلام يقود حيواناً بعنف وشدة لأنه بطيء الحركة، فمر به أحد الملوك وقال له:

الملك : يا غلام أرفق بهذا الحيوان.

الغلام : إن في الرفق به إضراراً له.

الملك : وما هذا المنطق يا غلام؟.

الغلام : ذلك لأنه إذا أبطأ يطول طريقه، ويشتد جوعه، وإذا أسرع يخفّ حمله ويطول أكله.

فأعجب الملك جوابه، وأجزل له عطاءه، فانبرى الغلام قائلاً:

الغلام : هو رزق مقدور من واهب مأجور.

الملك : وقد أثبت اسمك في بطانتي.

الغلام : كفيتُ مؤونة، ورزقت معونة.

الملك : ولولا حداثة سنِّك لاستوزرتك[1].

الغلام : لن يُعدم الفضل مَنْ رُزق العقل.

الملك : وهل تصلح لذلك أيها الغلام؟

الغلام : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، ولن يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها.

---

(١) استوزرتك: أي جعلتك وزيري.



● الحجاج وسعيد بن جبير ●

لمـا جيء بسعيد بن جبيـر بن هشـام[1]
بين يدي الحجاج سأله الحجاج:

الحجاج : ما اسمك؟
سعيد : أنا سعيد بن جبير بن هشام الأسدي.
الحجاج : بل أنت شقي بن كسير.
سعيد : بل كانت أمي أعلم باسمي منك.
الحجاج : شقيت أمك وشقيت أنت.
سعيد : الغيب يعلمه غيرك.
الحجاج : واللّٰه لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى.
سعيد : واللّٰه لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتـك إلهاً.
الحجاج : فما قولك في محمد ﷺ.
سعيد : نبيّ الرحمة وإمام الهدى.
الحجاج : فماذا تقول في عليّ[2] أهو في الجنة أم هو في النار؟.
سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.
الحجاج : فما قولك في الخلفاء الراشدين؟.

---

(١) سعيد بن جبير: أبو عبد الله بن هشام الكوفي الأسدي، سمع من أئمة الصحابة منهم ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وغيـرهم، كان من أئمـة التابعين ومتقـدميهم في التفسير والحديث والفقه، له مناقب كثيرة، قتله الحجاج صبراً وظلماً، وهـو ابن تسع وأربعين سنة، ولم يعش الحجاج بعده إلا أياماً.

(١) يعني الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

سعيد : لست عليهم بوكيل.

الحجاج : فأيهم أعجب إليك؟.

سعيد : أرضاهم لخالقي.

الحجاج : فأيهم أرضى للخالق؟.

سعيد : علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج : أحب أن تصدقني.

سعيد : إن لم أحبك لم أكذبك.

الحجاج : اختر لك يا سعيد قتلة.

سعيد : اختر لنفسك.. فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها يوم القيامة.

الحجاج : أتريد أن أعفو عنك.

سعيد : إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

الحجاج : لاقطعنك قطعاً قطعاً، ولأفرّقن أعضاءك عضواً عضواً.

سعيد : إذاً تفسد عليّ دنياي وأفسد عليك آخرتك.

الحجاج : الويل لك.

سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

الحجاج : اضربوا عنقه.

سعيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.
استحفظها حتى ألقاك يوم القيامة.

الحجاج : اضجعوه للذبح.

سعيد : وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ[١].

الحجاج : اقلبوا ظهره إلى القبلة.

سعيد : ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[٢]

الحجاج : كبوه على وجهه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٥.

سعيد : ﴿مِنْها خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى﴾[1].

(فـذبح سعيـد بن جبير من قفـاه.. فما بقي الحجـاج بعـد قتله إلا ثلاثة أيام).

●

(1) سورة طه الآية ٢٥.



● أبو الأسود الدؤلي وأعرابي ●

أقبل أحد الأعراب على أبي الأسود الدؤلي وهو يأكل، فسلم عليه، فردّ التحية ولم يدعه معه، فحاول الأعرابي أن يجتذب عطفه إليه فقال له:

الأعرابي : أما إني مررت بأهلك.
أبو الأسود : كذلك كان طريقك.
الأعرابي : وامرأتك حبلى.
أبو الأسود : كذلك كان عهدي بها.
الأعرابي : وولدت توأمين غلامين.
أبو الأسود : كذلك كانت أمها.
الأعرابي : ومات أحدهما.
أبو الأسود : وما كانت لتقوى على إرضاع اثنين.
الأعرابي : ثم مات الثاني.
أبو الأسود : وما كان ليبقى بعد موت أخيه.
الأعرابي : ثم ماتت الأم.
أبو الأسود : حزناً على ولديها.
الأعرابي : ما أطيب طعامك الذي أراه بعيني ولم أتذوقه بفمي.
أبو الأسود : لأجل ذلك أكلته وحدي.



● الجواب المناسب ●

وقف أعرابي شاعر بين يدي داو د بن المهلب وقال:

الشاعر : لقد مدحتك أيها الأمير فاستمع إلي:

داود : أنشد قصيدتك يا أعرابي، فإن أحسنت جازيناك، وإن أسأت عاقبناك. فأنشد.

الشاعر :

آمــنــتُ بــداود وجُــود يــمــيــنِــه
مِنَ الحدثِ المخشيّ والبؤسِ والفقر

وأصبحتُ لَا أخشى بـداودَ كبوةً
مِنَ الـدَّهر لما أن شددت به أزري

لـه حُكْمُ داود وصورة يوسف
وملكُ سليمان وعدل أبي بكر[1]

داود : قد كافأناك، فإن شئت على قدرنا، وإن شئت على قدرك.

الأعرابي : بل على قدري.

فأمر له بعطاء متواضع. فاعترض احد المستمعين على الأعرابي وقال له:

المستمع : اتحتكم على قدر نفسك، ولا تحتكم على قدر الأمير فتفوز؟

(١) داود وسليمان ويوسف هم أنبياء الله كما يدل عليهم الشاعر. أبو بكر: هو الخليفة الأول.

الأعرابي : نعم احتكم على قدر نفسي، لأنه ليس في خزائن الأمير ما يفي بقدره.

فوقع هذا الجواب المسكت من نفس الأمير موقعاً كان له قيمته في تقدير المكافأة.

● ذكاء طفلة ●

قال الأصمعي[1]:
أمّ رجلٌ من الأعراب منزل إبراهيم بن هرمة ، فإذا بنت له صغيرة تعبث بالتراب الطين، فقال لها الأعرابي:

الأعرابي : ما فعل أبوك؟.
البنت : وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا علم به من عهد.
الأعرابي : قولي لأمك تنحر لنا ناقة، فنحن ومن معنا أضيافها.
البنت : والله ما هي لنا في البيت.
الأعرابي : فلتكن دجاجة؟
البنت : حتى واللّه ولا الدجاجة.
الأعرابي : فلتكن بيضة.
البنت : ومن أين البيضة إذا لم تكن الدجاجة؟
الأعرابي : إذاً بطل ما قال أبوك:

---

(١) الأصمعي: هو سعيد عبد الملك، من مشاهير لغويي العرب، تعلم في البصرة على الخليل وأبي عمرو بن العلاء، وأخذ عن خلف الأحمر، عليه تعلم أبو الفضل الرياشي وأبو عبيدوالسجستاني. حفظ لغة البدو، عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين، له: خلق الإنسان، وكتاب الخيل، وكتاب الإبل، وكتاب الأضداد، والمجموعة الشعرية الأصمعيات. ولولاه لكنا فقدنا الكثير من دواوين العرب وأشعارهم.

كـم نــاقــة قــد وجــأت[1] بنــحــرهــا
بـمـسـتـهــل الـشـؤبــوب[2] أو جــمــل
لا أمــنــع الــعــود الــنــصــال[3] ولا
أبــتــاع إلا قــريــبــة الأجــل

البنت : والله إن هـذا الكرم من أبي هـو الذي ذهب بنـا إلى حيث ترى من القلة.

●

---

(١) وجأت: وجأه باليد أو السكين في عنقه أو في أي موضع كان. يجؤه وجئاً. ضربه، ووجأه: دفعه بيده من الصدر أو العنق، فهو موجوء.
(٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر وغيره. جمع شآبيب. يقال: أنزل الله عليه شآبيب رحمته.
(٣) النصال: حديدة الرمح أو السهم، أو السيف أو السكينة مفردها نصل.

● معاوية وليلى الأخيلية ●

قال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان لليلى الأخيلية[1].

معاوية : ألكِ حاجة يا ليلى فأقضيها لك؟

ليلى : ليس مثلي يطلب حاجة فتخيَّر أنت؟

وبعد أن وهب لها قطيعاً من الإبل قال لها:

معاوية : أخبريني عن مضر[2].

ليلى : فاخر يا أمير المؤمنين وحارب بقيس[3]، وكاثر بتميم[4] وناظر بأسد[5]!

معاوية : أكان توبة[6] يا ليلى كما يقول الناس فيه؟

ليلى : يا أمير المؤمنين.. لا تؤمن بكل ما يقال، فالناس شجرة بغي

(١) شاعرة عربية عقيلية. صاحبة توبة بن الْحِمَيْر، لما قتل توبة رثته بمراث كثيرة اشتهرت بها، لها شعر في الهجاء، وقد هجت النابغة الجعدي.

(٢) مضر: قبيلة عربية مشهورة، تنتسب إلى جدها الأول مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٣) قيس: قبيلة من مضر. اشتهرت بفرسانها الأشداء، سكنت الجزيرة العربية.

(٤) تميم: قبيلة عربية شمالية، بطن من الياس بن مضر، أنجبت أعظم شعراء الجاهلية، كانت لغتها العربية حجة بين لغات القبائل. ارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي محمد ﷺ، فأعادهم إليه خالد بن الوليد، رضي الله عنه، واشتركوا في فتح الكوفة والبصرة وخراسان.

(٥) أسد: بن عبد العزى، من بني أمية وهم أشجعها.

(٦) توبة: هو توبة بن الحميَر شاعر، صاحب ليلى الأخيلية، عرف بها وعد من عشاق العرب المشهورين، خطبها من أبيها فلم يزوجه بها لما كانت عليه من عادة العرب. انهم لا يزوجون بنتاً لمن اشتهر حبه لها، قتل في إحدى غزواته.

يحسدون بعضهم بعضاً، كان توبة أبسط الناس بناناً[1]، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً[2]، كريم المخبر، عفيف المئزر[3]، جميل المنظر، وكان كما قلت ولم أبعد الحق فيه. وأنشدت:

بعيد المدى لا يبلغ القرن قعره
ألدّ ملدّ يغلب الحق باطله

معاوية : ويلك يا ليلى.. كان الناس يرمونه بالعهر والفجر.

ليلى : معاذ النُّهى قد كان والله توبة
جواداً على العلات جمّاً نوافله [4]
أغر خفاجياً يرى البخل سبة
تحالف كفاه الندى وأنامله [5]
عفيفاً بعيد الهم صلباً قناته
جميلاً محياه قليلا غوائله [6]
وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره
أتاه نيله وفواضله [7]
وقد علم الجدب الذي كان سارياً
على الضَّيْف والجيران أنك قاتله [8]
وأنك رحب الباع ياتوب بالقوى
إذا ما لئيم القوم ضاقت منازله [9]

---

(١) البنان: الأصابع وأطرافها، واحدتها بنانة، يقال: بنانٌ مخضّب.
(٢) الجنان: القلب.
(٣) المئزر: كساء يغطي النصف الأسفل من البدن، ويقابله الرداء: وهو ما يستر النصف الأعلى.
(٤) جماً نوافله: كثير الهبات.
(٥) أغر خفاجيا:
(٦) الغوائل: الدواهي والغائلة الحقد الباطن.
(٧) أرغى بعيره: تجاوبت برغائها. وتراغى القوم: تصايحوا وتنادوا لأمر.
(٨) الجدب: المحل والقحط.
(٩) رحب الباع ياتوب بالقوى:

يبيت قرير العين من كان جاره

ويضحى بخير ضيفه ومنازله

معاوية : ويحك يا ليلى، لقد تخطيت بتوبة قدره.

ليلى : يا أمير المؤمنين والله لو رأيته وخبرته لأكبرته، ورميتني بالتقصير في حقه.

معاوية : وفي أي سن كان توبة؟

ليلى : أتته المنايا حين تم تمامه

وأقصر عنه كل قرن يناضله[1]

وصار كليث[2] الغاب يحمي عرينه

فترضى به أشباله وحلائله

عطوف حليم حين يطلب حلمه

وسم زعاف لا تصاب مقاتله

معاوية : وأي قول لك فيه كان أشعر؟

ليلى : يا أمير المؤمنين.. ما قلت شيئاً إلا والذي فيه خصال الخير أكثر مما قلت.

فسكت معاوية برهة ثم قال:

معاوية : لقد حاولت تعجيزك فأفحمتيني بإعجازك.

●

---

(١) المنايا: الموت. مفردها المنية.

(٢) ليث الغاب: أسد الغابة.



● الغضبان والأعرابي ●

بينما كان الغضبان بن القبعثري راجعاً من رملة كرمان[1] وهي شديدة الرمضاء ، وحط عن رواحله، وضرب قبته في الأرض، إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل، وقد أقبل على بعير واتجه إليه وقال له:

الأعرابي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الغضبان : هي سنّة وردّها فريضة. قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟

الأعرابي : أصابتني الرمضاء وشدة الحرّ، فيممت قبتك أرجو بركتها.

الغضبان : هل يممت قبة أكبر من هذه وأعظم؟

الأعرابي : تلك قبة لا يوصل إليها.

الغضبان : إن قبتي أمنع منها.

الأعرابي : ما اسمك يا عبد الله؟

---

(١) رملة كرمان: ناحية كبيرة ومعمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. فتحها أبو موسى الأشعري عنوة، وعمرها العرب. يقول فيها أبو حمير السعدي:

لقد كنت ذا قرب فأصبحت نازحاً
بكرمان ملقى بينهن أدور

الغضبان : اسمي آخذ.

الأعرابي : وما تعطي؟

الغضبان : أكره أن يكون لي إسمان.

الأعرابي : بالله من أين أنت؟

الغضبان : من الأرض التي أمشي في مناكبها وآكل من رزقها.

الأعرابي : (وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى) أتقرض الشعر؟

الغضبان : إنما يقرض الفأر.

الأعرابي : أفتسجع[1]؟

الغضبان : لست بحمامة فأسجع.

الأعرابي : يا هذا اتق الله فيّ وائذن لي بالدخول في قبتك.

الغضبان : واللّه خلفك أوسع لك.

الأعرابي : أحرقتني حرارة الشمس.

الغضبان : ليس لي عليها من سلطان.

الأعرابي : الرمضاء أحرقت قدميّ.

الغضبان : بُل عليها تبرد.

الأعرابي : لا تخف إني لا أطمع في طعامك ولا شرابك.

الغضبان : لا تحلم بما لا تصل إليه.

الأعرابي : يا سبحان الله.

الغضبان : نعم أن تطلع أضراسك.

الأعرابي : يا جار بني كعب أدركوني.

الغضبان : لبئس الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد حتى تستغيث.

الأعرابي : والله ما رأيت أقسى منك قلباً، أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني هلا أدخلتني قبتك وطارحتك القريض.

---

(1) السجع: يقال: سجعت الحمامة أي رددت صوتها على طريقة واحدة، أما السجع في الكلام فهو الكلام المنثور المقفى.

الغضبان : مالي بمحادثتك من حاجة.

الأعرابي : بالله ما حقيقة اسمك ومن أنت؟

الغضبان : أنا الغضبان بن القبعثري.

الأعرابي : اسمان منكران خُلقا من غضب.

الغضبان : قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العرجاء.

الأعرابي : قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء.

الغضبان : لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة.

الأعرابي : والله إن عنصرك لفاسد.

الغضبان : وما أقدرني على إصلاحه.

●



○ من شابه أباه ما ظلم ○

قال الأصمعي:

كان في بني تميم رجل اسمه (حنظلة)، وكان معروفاً بسرعة الجواب المسكت حتى لا يكاد أحد يقهره. فتزوج امرأة منهم اسمها (علقمة) فجاءته بجملة من الأولاد، ولم يسلم له منهم غير ولد واحد اسمه (مرّة) وكان أسرع من أبيه جواباً، فبدرت منه بادرة سوء أوجبت سبه من أبيه في قومه كتقاليد العرب.

قال الوالد لولده مرة:

حنظلة : أنت خبيث كاسمك يا مرة!

مرة : اللوم على من سماني به.

حنظلة : وإنك لمرّ يا مرة.

مرة : وما عسى أن تقول في طعم الحنظل.

حنظلة : لا رضيَ الله عن بطن نزلت منه.

مرة : وماذا تقول في ظهر انحدرت منه.

حنظلة : والله لا تزداد على الأيام إلا سوء أدب.

مرة : وهكذا يثمر الشوك عنباً.

حنظلة : ألا لا أفلحت أبداً.

مرة : وكيف أفلح وأنت غاضب عليّ؟

حنظلة : أراحني الله منك كما أراحني من إخوتك.

مرة : ﴿فإذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِـرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون﴾[1]

حنظلة : سأدعونّ الله عليك.

مرة : الذي تدعوه عالم بالسرائر.

حنظلة : لا يعلم مني إلا خيراً.

مرة : لا تعجل بشكر نفسك.

حنظلة : ما أجد لي خيراً من السكوت.

مرة : ولكن ما يمنعك حب الانتقام.

حنظلة : لولا فتوري عنك ما تجرأت عليّ.

مرة : إذن فلست أنا بملوم.

قال الأصمعي:

فانقطع جواب أبيه.

○

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

استقدت يا أُمّ عمارة

لكل بطل موقف عرف به، وأُثر عنه، وكان مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته.

وليس هناك موقف أملأ للقلب، وأملك للنفس، وآثر في التاريخ من موقف نسيبة بنت كعب[1].

خرجت نسيبة في جيش المسلمين يوم أُحد[2]، تسقي الظماء، وتأسو[3] الجرحى، وكانت غرة[4] الحرب وطلعتها للمسلمين ثم أشاحت بوجهها عنهم، فتناولتهم سيوف المشركين، تنهل من نحورهم، وتطعن في ظهورهم، فانكشفوا وولوا مدبرين، إلا عشرة أو نحوهم،

(١) نسيبة بنت كعب: من بني مازن بن النجار، أحد بطون الأنصار، وزوجها الذي ثبت في أحد معها: زيد بن عاصم، وابناها: حبيب وعبد الله ابنا زيد. وكان حبيب قد سار في رفقة خالد بن الوليد لقتال مسيلمة، فقتل، فأقسمت نسيبة أن تقاتل مسيلمة حتى يقتل أو تقتل، فذهبت إلى اليمامة واشتركت في الموقعة التي قتل فيها مسيلمة، وفيها قطعت يدها رضي الله عنها.

(٢) أحد: جبل يقع شمالي المدينة، جرت عنده ثاني المعارك بين المسلمين والمشركين بقيادة أبي سفيان، فيها جرح النبي الأعظم ﷺ، وقتل عمه رضي الله عنه.

(٣) تأسو الجرحي: تداوي المرضى.

(٤) غرة الحرب: الغرة: الحسن: غرة الحرب: النصر.

وقفوا يدرأون[1] عن رسول الله ﷺ، ويحولون دون الوصول إليه.

هناك جاء دور نسيبة، فانتضت سيفها[2]، واحتملت قوسها، وذهبت تصول وتجول بين يدي رسول الله ﷺ تنزع عن القوس، وتضرب بالسيف، وحولها من الغرّ المذاويد[3] عليّ، وأبو بكر، وعمر، وسعد، وطلحة، والزبير، والعباس، رضي الله عنهم، وولداها وزوجها، فكانت أظهر القوم أثراً، وأعظمهم موقفاً.

وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله ﷺ حتى تكون سداده وملء لهوته[4]، حتى قال ﷺ: «ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني».

ومما حدّث به ابنها عمارة[5] قال:

جُرحتُ يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرقل[6] ومضى عني. ولم يُعَرِّجْ علي. وجعل الدم لا يرقأ[7].

فقال رسول الله ﷺ: «اعصب جرحك».

فأقبلت أمي إلي، ومعها عصائب[8] في حقويها[9] وقد أعدتها للجراح، فربطت جرحي، والنبي ﷺ واقف ينظر إليّ.

---

(١) يدرأون: يدافعون.

(٢) انتضت سيفها: سحبته من غمده.

(٣) الغر المذاويد: الرجال الذين يدافعون عن ديارهم.

(٤) سداده وملء لهوته: تقف أمامه لتمنع العدو من الاقتراب منه.

(٥) عمارة: بن زيد: أنصاري صحابي، كانت معه رايةبني مالك بن النجار يوم فتح مكة، استشهد باليمامة سنة ١٣ هجرية الموافق ٦٣٣م.

(٦) الرقل: جمع رقلة وهي النخلة العالية.

(٧) لا يرقأ: لا ينقطع.

(٨) عصائب: مفردها عصابة وهي ما عصب به على الجروح والكسور.

(٩) حقويها: خصرها.

ثم قالت: قم يا بني، فضارب القوم.

فجعل النبي ﷺ يقول: «ومن يُطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟».

قالت: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك».

قالت: فاعترضت له، فضربت ساقه، فبرك. قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يتبسّم حتى رأيت نواجذه[1].

وقال: «استَقَدت[2] يا أم عمارة».

ثم أقبلنا نَعُلُّه[3] بالسلاح حتى أتينا على نفسه. فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفَّرك وأقرَّ عينك من عدوّك، وأراك ثأرك بعينك».

وأُصيبت نسيبة في هذا اليوم بثلاثة عشر جرحاً، واحد منها غار في عاتقها فنزف الدم منه، وهي رغم ذلك كالصاعقة الساحقة، تضرب في نحور العدو، وترتمي بين صفوفهم، غير آبهة ولا دارية بالدم الناعر[4] من جسمها.

فقال رسول الله ﷺ: «أُمّك. أُمّك اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت. مقام أمك خير من مقام فلان وفلان».

فلما سمعت أمه قالت:

ادع الله أن نرافقك في الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»

فقالت: ما أُبالي ما أصابني في الدنيا[5].

---

(١) النواجذ: الناجذ: الضرس، ضحك حتى بدت نواجذه: أي استغرق في الضحك.

(٢) استقدت: أخذت ثأرك.

(٣) نعُلُّهُ: عَلَّ الضارب المضروب: تابع عليه الضرب.

(٤) الدم الناعر: الدم الذي يخرج من العرق وبخروجه يحدث صوتاً.

(٥) أخرج هذا الحديث من سيرة ابن هشام، وانسان العيون والآثار المحمدية، وطبقات ابن سعد، وأسد الغابة.



○ فارسة ليس لها مثيل ○

أخت القائد العظيم ضرار بن الأزور[1] الكندي.

وهي إحدى عقائل العرب، وبقية بنات الملوك، وبيتها بيت رسخت دعائمه على القوة والمضاء[2] في الجاهلية والإسلام، قُتل أبوها بين يدي رسول الله ﷺ دفاعاً عنه، وأخوها ضرار من القادة الذين لا يغني غناءهم أحد، وكان يُقاس إذا اشتملت عليه الوقائع بألف رجل.

أما هي، فقد أوتيت من جمال الوجه، ومضاء القلب، ورباطة الجأش والاستبسال في القتال، ما لم يتح لكثير من الناس، ولها مواطن غرٌ صالحات، شفت قلوباً، وروعت قلوباً، ومنها ما نحن ذاكروه لك.

قال الواقدي[3]:

لما أُسر ضرار بن الأزور في وقعة أجنادين[4] سار خالد بن

---

(١) ضرار بن الأزور: بن أوس بن خزيمة الأسدي، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام، وكان شاعراً مطبوعاً. له صحبة. قاتل يوم اليمامة أشد القتال، حتى قطعت ساقاه، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل والخيل تطأه.

(٢) المضاء: النفاذ والقوة.

(٣) الواقدي: هو محمد بن عمر (٧٤٧ ـ ٨٢٢) من أقدم المؤرخين في الإسلام، ولد بالمدينة المنورة، وأقام ببغداد حيث تولى قضاءها وفيها توفي، اتصل بخالد البرمكي، فأجزل عليه العطاء وقربه من الخليفة. من مؤلفاته: «المغازي». «فتح مصر والإسكندرية» . و«فتوح الشام».

(٤) وقعة أجنادين: موقع بين الرملة وبيت جبرين في فلسطين، جرت فيه معركة بين العرب =

الـوليد[1] في طليعـة جنده لاستنقـاذه، فبينما هـو في الطريق مـر بـه فارس معتقل رمحه، لا يبين منه الحدق[2]، وهو يقـذف بنفسه، ولا يلوي على ما وراءه، فلما نظره خالد قال:

خالد : ليت شعري من هذا الفارس؟ وايم الله إنه لفارس. ثـم اتبعه خـالد والنـاس من ورائه، حتى أدرك جنـد الروم، فحمـل عليهم، وأمعن بين صفـوفهم، وصاح بين جـوانبهم، حتى زعزع كتـائبهم، وحطم مـواكبهم، فلم تكن غير جـولة جـائـل، حتى خـرج وسنـانـه ملطخ بالدماء، وقد قتل رجالاً، وجنـدل أبطالاً، ثم عـرض نفسه للمـوت ثـانية، فـاخترق صفـوف القوم غيـر مكترث، وخـامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير. وظنه أنـاس خالـداً. حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة .

رافع : مَن الفارس الذي تقدم أمامك؟ فلقد بذل نفسه ومهجته!!!

خالد : والله لأنا أشد إنكـاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله.

وبينما القوم في حديثهم، خرج الفارس كأنـه الشهاب الثـاقب، والخيـل تعدو في أثـره، وكلما اقتـرب أحد منـه ألوى عليه، فـأنهل رمحه من صدره، حتى قدم على المسلمين، فأحـاطوا بـه وناشـدوه كشف اسمه، ورفع لثامه.

خالد : أناشدك الله هلا رفعت لثامك.

فلما أكثر خالد قال الملثم:

الملثم : أيها الأمير إني لم أعرض عنك إلا حيـاء منك، لأنـك أمير جليـل.

= والبيزنطيين، انتصر فيها العرب على البيزنطيين انتصاراً ساحقاً عام ٦٣٤.

(١) خالد بن الوليد: بن المغيرة المخزومي، سيف الله الفاتح الكبير، صحابي، كـان من أشراف قريش في الجاهلية يلي أعنة الخيل، أسلم قبل الفتح، فسرَّ رسول الله ﷺ :وولاه الخيل، فتح الحيرة، وتغلب على جيوش الروم في معركة اليرموك، توفي بحمص وله مقام كبير فيها.

(٢) الحدق: السواد المستدير وسط العين.

وأنا من ذوات الخدور، وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني مُحْرَقة الكبد، زائدة الكمد[1].

خالد : من أنت؟

الملثم : أنا خولة بنت الأزور. كنت مع نساء قومي، فأتاني آت بأن أخي أسير، فركبت، وفعلت ما رأيت. هناك صاح خالد في جنده، فحملوا وحملت معهم خولة، وعظم على الروم ما نزل بهم منها، فانقلبوا على أعقابهم، وكانت تجول في كل مكان علّها تعرف أين ذهب القوم بأخيها، فلم تر له أثراً، ولا وقفت له على خبر.

على أنها لم تزل على جهادها، حتى استنقذها أخوها.

○

(١) الكمد: الحزن المكتوم.



○ الجنان الثابت ○

غزالة الحرورية: زوج القائد البطل المخوف شبيب بن يزيد[1] قائد الخوارج[2] وبطلهم، والقائم بالأمر فيهم.

وهي إحدى القادة الكفاة، الذين دوّخوا البلاد، وروعوا الجيوش، وملأوا القلوب أثراً، والأفواه خبراً، والأرض عبراً.

وكانت هي وزوجها يليان قيادة الخوارج، وكان الحجاج بن يوسف مبيد العراق، وسفاك بني أمية، يستمع خبرها فيمتلىء قلبه رعباً ووهلاً[3].

وقد حدثوا: أنه خرج في جنده، وكلهم شاكي السلاح، مستكمل العدة، مرهوب الصولة.

---

(١) شبيب بن يزيد: بن جمرة بن عوف، شاعر إسلامي بدوي، عنيف الهجاء اشتهر بنسبته إلى أمه أمامة(أو قرصافة) بنت الحارث، كان شريفاً سيداً في قومه، من شعراء الدولة الأموية.

(٢) الخوارج: أقدم الفرق الإسلامية، خرج رجالها بادىء الأمر على الإمام علي لأنه رضي ولو مكرهاً على التحكيم بينه وبين معاوية في معركة صفين، وعسكروا في حروراء قرب الكوفة، وراحوا يعترضون الناس قتلاً وترويعاً، فأوقع بهم الإمام علي في معركة النهروان، وهكذا تفرقوا في الأمصار، اشتهر من زعمائهم الضحاك بن قيس، وعمران ابن حكان والطرماح بن حكيم، وقد تفرقوا فرقاً كثيرة أهمها: الأزارقة، والصفرية، والأباضية، ولا يزال الأباضيون منتشرين اليوم في أنحاء أفريقيا الشمالية.

(٣) الوهل: الضعف الفزع.

فعرضت له غزالة في أربعين، وهو في أربعة آلاف، فما لبث أن اختلط عليه الأمر، وخلع قلبه الفزع، وولى هارباً يخلط في قوله، وهو أعرف الناس بمواطن القول. وأرفقهم بأساليب الكلام، ولكنه عُقل قلبه، فعُقِلَ لسانه.

وفي ذلك كتب عمران بن حطان[1] إلى الحجاج، وكان الحجاج قد لجّ في طلبه[2]:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة
ربداء تجفل من صفير الصافر[3]

هلا برزت إلى غزالة في الوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر

صدعت غزالة جمعه بعساكر
تركت كتائبه كأمس الدابر

وبلغ من جسارتها، وقوة قلبها، أنها أقسمت لَتُصَلِّيَنّ في مسجد الكوفة[4] ركعتين، تقرأ في الأولى سورة البقرة، وفي الثانية آل عمران، والكوفة يومئذ معقل الحجاج، ودار إمرته ومجتمع قوّته.

وقد برّت غزالة بقسمها، ودخلت مسجد الكوفة هي وزوجها،

---

(١) عمران بن حطان: السدوسي الشيباني، شاعر وخطيب من أهل البصرة، أدرك جماعة من الصحابة فروى عنهم، طلبه الحجاج فهرب إلى الشام، فطلبه فهرب إلى عمان، فكتب الحجاج إلى أهلها بالقبض عليه، فلجأ إلى قوم من الأزد، فمات عندهم أباضياً. كان شاعراً مغلقاً مكثراً، له قصيدة يقول في مطلعها:

حتى متى لا نرى عدلاً نعيش به
ولا نرى لدعاة الحق أعواناً؟

(٢) الأغاني الجزء ١٦ صفحة ١٨.

(٣) الربداء: من ربد، اختلط سواده بكدرة فهو أربد.

(٤) الكوفة: مدينة في العراق، أسسها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية قرب الحيرة، اتخذها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مقراً له عام ٦٥٧، وفيها قتل عام ٦٦١، جعلها العباسيون عاصمة عام ٧٤٩، وتقلص ظلها بعد تأسيس بغداد، ويقع بالقرب منها النجف الأشرف ومشهد علي. انجبت الكوفة علماء ونحويين ومحدثين.

ولبثت تصلى ركعتين تستنفدان نصف النهار، ولما أنبىء الحجاج بها، تحصَّنَ في قصره، واستوثق من رتاج[١] بيته.

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش، وهي تلتهم التهاماً، حتى أصبحت طِباق[٢] العراق ترتجف لاسمها. وفي ذلك يقول أعين بن خزيم[٣]:

أتينا بهم مائتي فارس
من السافكين الحرام العبيطا[٤]
وهم مائتا ألف ذي قَوْنَسٍ
يئط العراقان منهم أطيطا[٥]
رأيت غزالة ان طَرّحَتْ
بمكة هودجها والغبيطا[٦]
سمعت للعراقين في جمعها
فلاقى العراقان منها بطيطا[٧]
ألا يستحي أهل العراق
إن قلّدوا الغانيات السموطا[٨]
وخيل غزالة تسبي النساء
وتحوي النِّهاب وتحوي النبيطا[٩]

---

(١) رتاج البيت: رتج الباب رتجاً: أغلقه إغلاقاً وثيقاً.
(٢) طباق العراق: كل العراق.
(٣) الأغاني الجزء ٢١ صفحة ٨.
(٤) السافكين: سفك دم فلان: قتله. العبيط: الرحل.
(٥) قونس: أعلى بيضة الحديد. يئط: أط أطيطاً: صوّت. والأطيط: الصياح الممزوج بالأنين.
(٦) الهودج: مقصورة توضع على جمل.
(٧) البطيط: العجب أو الداهية.
(٨) السموط: الشيء المصطف، وسماط القوم: صفهم.
(٩) النهاب: جمع نهب، وهي الغنائم. النبيط: جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقين.

وقتلت غزالة خدعة في موقعة الكوفة بين شبيب وبين الحجاج، غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها بينما كانت تخوض في صدور جنده[1]

ومن بعدها قُوِّض جند شبيب وعفا أثره.

○

(١) ابن جرير الجزء ٨ صفحة ٨٥٣.

○ المرأة الموسوعة ○

بلغت المرأة العربية من رواية الشعر والوقوف على مراميه ونفاذ البديهة في اجتلابه وقت الحاجة إليه درجة عالية لم تبلغها المرأة الغربية أبداً.

قالوا إن رجلاً من العرب نزل بامرأة من بني عامر، فأكرمته وأحسنت قِراه[1]، فلما هم بالرحيل أنشد ذلك البيت[2]:

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر
منَ اللؤمِ ما دامت عليها جلودها[3]

حتى إذا سمعته قالت لجاريتها:

المرأة : قولي له: ألم نُحسنْ إليك ونفعَل ونفعل؟ وهل رأيت تقصيراً.

الرجل : لا..

المرأة : فما حملك على البيت؟.

الرجل : جرى على لساني.

فخرجت إليه جارية من بعض الأخبية[4] فحدثته حتى أنس واطمأن، ثم قالت له:

المرأة : ممن أنت يا ابن عم؟

---

(١) قراه: قرى الضيف: أضافه وأكرمه.

(٢) وفيه يهجو بني عامر.

(٣) سرابيل: ما يلبس من قميص أو درع. مفردها سربال.

(٤) الأخبية: الأماكن المستورة.

الرجل : من تميم.

المرأة : أتعرف الذي يقول:

تـميـم بـطرق اللؤم أهـدى مـن القـطا
ولـو سَلَكَتْ سُبـل المكـارم ضَلَّتِ[1]
أرى الـليـل يـجـلوه الـنـهـار ولا أرى
خـلال الـمخـازي عـن تميـم تَـجَلَّت

الرجل : والله ما أنا من تميم

المرأة : ما أقبح هذا الكذب بأهله، فممن أنت؟

الرجل : من بني عجل.

المرأة : أفتعرف القائل؟

أرى النـاس يعـطون الجـزيـل وإنمـا
عـطاء بـنـي عـجـل ثـلاث وأربـع
إذا مـات عـجـليّ بـأرض فـإنـمـا
يـخط لـه فـيـهـا ذراع وأصـبـع

الرجل : لا واللّه ما أنا من بني عجل.

المرأة : فممن؟

الرجل : من بني عبس

المرأة : أفتعرف القائل؟:

إذا عـبـسـيـة ولـدت غـلامـاً
فـبـشـرهـا بـلـؤم مـسـتـفـاد

الرجل : لا والله.. ما أنا من بني عبس.

المرأة : فممن؟

الرجل : من بُجيلة!!

---

(١) القطا: جنس طير. مفردها: قطاة. تشبه الحمام، وهي سريعة الطيران، تطير مسافات شاسعة في طلب القوت والماء، وتألف الصحارى، تعيش أسراباً كبيرة.

المرأة : أفتعرف القائل؟

سـألـنـا عـن بُـجَـيْـلَةَ حـيـن جـاءت
لـتـخـبـر أيـن قَـرَّ بـهـا الـقـرار
فـمـا تـدري بـجـيـلة إذ سـألـنـا
أقـحـطان أبـوهـا أم نـزار
فـقـد وقـعـت بُـجَـيْـلَةُ بَـيْـنَ بَـيْـنٍ
وقـد خُـلِعت كـمـا خلع الـعـذار[1]

الرجل : لا واللّه ما أنا من بجيلة

المرأة : فممن؟

الرجل : من بني النمير.

المرأة : أفتعرف القائل؟ :

فـغض الـطرف إنـك مـن نـمـيـر
فـلا كـعـبـاً بـلـغـت ولا كـلابـا

الرجل : لا واللّه ما أنا من بني نمير.

المرأة : فممن؟

الرجل : من بني باهلة.

المرأة : أفتعرف القائل؟

إذا نصّ الـكـرام إلـى الـمـعـالـي
تـنـحى الـبـاهـلي عـن الـزحـام
إذا ولـدت حـلـيـلة بـاهـليٍّ
غـلامـاً زيـد فـي عـدد الـلـئـام
ولـو كـان الـخـلـيـفـة بـاهـلـيـاً
لـقـصـر عـن مسـامـاة الـكـرام

(١) العذار للغلام: جانب لحيته. وللدابة: السير الذي على خدها من اللجام.

وعرض الباهليّ وإن تَوَقّى
عليه مثل منديل الطعام

الرجل : لا واللّه. . . ما أنا من باهلة.

المرأة : فممن؟

الرجل : من خزاعة.

المرأة : أفتعرف القائل؟

إذا فخرت خزاعة في نديٍّ
وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهلاً
بِزِقٍّ بئس مفتخر الفخور

الرجل : لا واللّه. . ما أنا من بني خزاعة.

المرأة : فممن؟

الرجل : من بني أمية.

المرأة : أفتعرف القائل؟

وهى من أمية بنيانها
فهان على الناس فِقدانها
وكانت أمية فيما مضى
جَرِيَاً على اللّه سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الإله
ولم يتق الله مروانها

الرجل : لا واللّه ما أنا من أمية.

المرأة : فممن؟

الرجل : من هَمْدَان.

المرأة : أفتعرف القائل؟

إذا همدان دارت يوم حرب
رماها فوق هامات الرجال

رأيتهم يحثون المطايا
سراعاً هاربين من القتال

الرجل : لا واللّه . . . ما أنا من همدان.

المرأة : فممن؟

الرجل : من النّخع.

المرأة : أفتعرف القائل؟

إذا النخع اللئام عدوا جميعاً
تدكدكت الجبال من الزحام[1]
وما تغني إذا صدقت فتيلاً
ولا هي في الصميم من الكرام

الرجل : لا واللّه ما أنا من النخع!!

المرأة : فممن

الرجل : من لَخْم

المرأة : أفتعرف القائل؟

إذا ما أجتبى قوم الفضل قديمهم
تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

الرجل : لا واللّه . . . ما أنا من لخم.

المرأة : فممن؟

الرجل : من كلب.

المرأة : أفتعرف القائل.

فلا تقربن كلباً ولا باب دارها
ولا يطمعن سارٍ يرى ضوء نارها

الرجل : لا واللّه ما أنا من كلب.

---

(١) النخع اللئام: الشح والمهانة والدناءة. تدكدكت: تهدمت

المرأة : فممن؟

الرجل : من سُلَيْم.

المرأة : أفتعرف القائل:

إذا ما سُلَيْم جئتها في ملمة
رجعت كما جئت خزيان نادماً

الرجل : لا واللّه ما أنا من سليم.

المرأة : فممن؟

الرجل : من الموالي.

المرأة : أفتعرف القائل؟

ألا من أراد اللؤم والفحش والخنا
فعند الموالي الجيدُ والكتفان

الرجل : لا واللّه ما أنا من الموالي.

المرأة : فممن؟

الرجل : رجل من الشيطان الرجيم.

المرأة : أفتعرف القائل؟:

ألا يا عباد اللّه هذا عدوكم
وذا ابن عدو اللّه أبليس خائناً

حتى إذا ضاقت بالرجل مناسبه، وأعيت عليه مذاهبه، قال لها:

الرجل : اللّه.. اللّه... أقيليني العثرة فواللّه ما ابتليت بمثلك قط، ثم خرج خاسئاً وهو حسير[1].

○

(١) المسعودي الجزء الثاني صفحة ١٧٥ ـ ١٨٠، وطبقات الشافعية الجزء ١ صفحة ١٤٢ ـ ١٤٦.

○ العدل الشامل ○

استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية[1] على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها. فلما دخلت عليه قال لها:

معاوية : هيه يا بنت الأسك.. ألست القائلة يوم صفين؟

شَمِّر كفعل أبيك يا ابن عمارة
يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه
واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبي محمد
علم الهدى ومنارة الإيمان
فقِهِ الحتوف وسر أمام لوائه
قُدُماً بأبيض صارم وسنان

سودة : أي واللّه، ما مثلي من رغب عن الحق. أو اعتذر بالكذب.

معاوية : فما حملكِ على ذلك؟

سودة : حب علي عليه السلام، واتباع الحق.

معاوية : فواللّه ما أرى عليكِ من أثر علي شيئاً.

سودة : أنشدك اللّه يا أمير المؤمنين وإعادة مامضى، وتذكار ما قد نسي!!

معاوية : هيهات.. ما قل مقام أخيك يُنسى. وما لقيت من أحد ما لقيت من

(١) سودة بنت عمارة: شاعرة من شواعر العرب. ذات فصاحة وبيان.

قومك وقوم أخيك.

سودة : صدق فوك!! لم يكن أخي ذميم المقام، ولا خفي المكان، كان والله كقول الخنساء[1]:

وإن صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار[2]

معاوية : صدقت... لقد كان ذلك.

سودة : مات الرأس، وبُتر الذنب، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه.

معاوية : قد فعلت، فما حاجتك؟

سودة : إنك أصبحت للناس سيداً ولأمرهم متقلداً، والله سائلك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنا ولا يزال يقدم علينا من يبوء بعزك، ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة. هذا بُسر بن أرطاة[3] قدم علينا من قبلك، فقتل رجالي، وأخذ مالي يقول لي فوهي بما استعصم الله منه وألجأ إليه فيه[4]، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فأما عزلته عنا فشكرناك، وأما لا فعرّفناك.

معاوية : أتهدديني بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس[5] فأردك إليه ينفذ فيك حكمه.

---

(١) الخنساء: أعظم شاعرة عربية، قتل أخواها، معاوية وصخر، فرثتهما، محرضة قومها على الأخذ بالثأر، اسلمت مع قومها واشترك أولادها الأربعة في معركة القادسية، وفيها استشهدوا، لها ديوان أكثره في الرثاء، شرحه ابن السكيت وابن الأعرابي والثعالبي.

(٢) تعني أخاها صخر. ديوان الخنساء ص ٥٤ ـ دار الكتاب العربي ـ دمشق.

(٣) بسر بن أرطاة: قائد من رجال معاوية، وجه به معاوية بجيش بعد التحكيم، وأمره أن يسير في البلاد ويقتل من وجد من شيعة علي، فقتل الكثير من أتباع علي وشيعته وآل البيت، وقد ذبح بيده ولدين لعبيد الله بن عباس، وجنّ في آخر عمره.

(٤) تريد بذلك أنه يأمرها بسب الإمام علي للزارية بأبنائه وبأتباعه.

(٥) قتب أشرس: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

فأطرقت تبكي ثم قالت:

سودة : صـلى الـلّه عـلى جسـم تـضـمـنـه
قبـر فـأصبـح فيـه العـدل مـدفـونـا
قـد حـالـف الحـق لا يبـغي بـه بـدلاً
فـصـار بـالحـق والإيـمـان مـقـرونـا

معاوية : ومن ذلك؟

سودة : علي بن أبي طالب عليه السلام.

معاوية : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟

سودة : قدمت عليه في رجل ولّاه صدقتنا، قدم علينا من قبله، فكان بيني وبينه ما بين الغث والسمين[1] فأتيت علياً عليه السلام لأشكو إليه ما صنع بنا، فوجدته قائماً يصلي، فلما نظر إلي انفتل[2] من صلاته، ثم قال لي برأفة وتعطف:
ألك حاجة؟
فأخبرته الخبر، فبكى، ثم قال: اللهم إنك أنت الشاهد علي وعليهم، إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك.
ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف جواب فكتب عليها:
«بسم اللّه الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بينة من ربّكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية اللّه خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ».
إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام.

---

(١) الغث والسمين: الغث: البخيل النحيف المهزول خلاف السمين، والغث من الكلام: الرديء الفاسد. يقال: فلان لا يميز الغث من السمين.

(٢) انفتل من صلاته: انصرف عنها.

فأخذته منه واللّه ما ختمه بطين، ولا خزمه بخزام[1] فقرأته.

معاوية : لقد لمظكم[2] ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تُعَظِّمون. ثم قال:

اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها.

سودة : أَليَ خاصة أم لقومي؟

معاوية : ما أنت وقومك؟

سودة : هي واللّه الفحشاء واللوم!! إن لم يكن عدلاً شاملاً واللّه فأنا كسائر قومي.

معاوية : أكتبوا لها ولقومها.

○

---

(١) خزمه بخزام: شكه ونظمه وثقبه.

(٢) لمظ: جرأ.

○ الحب يبقى حباً ○

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة، أن أوفد عليَّ أم الخير بنت الحريش بن سُراقة البارقية [1] رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة، واعلم أني مجازيك بقولها فيك، بالخير خيراً وبالشر شراً.

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه، وقالت له:

أم الخير : أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري، تجري مجرى النَّفَس يغلي بها غلي المرجل بحب البُلْسُنِ[2] يوقد بِجِذْل السَّمُر[3].

فلما حملها وأراد مفارقتها قال:

الوالي : يا أم الخير... إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك فيّ، بالخير خيراً، وبالشر شراً، فانظري كيف تكونين؟.

أم الخير : يا هذا لا يُطمعك واللَّه يدك بي في تزويقي الباطل، ولا تؤيسك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خير مسير. ولما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم

---

(١) أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية: من ربات الفصاحة والبلاغة

(٢) البلسن: العدس.

(٣) جذل السمر: أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع. والسمر: شجر من أشجار البادية.

ثلاثاً. ، ثم أذن في اليوم الرابع، وجمع لها الناس، فلما دخلت عليه قالت:

أم الخير : السلام عليك يا أمير المؤمنين.

معاوية : وعليك السلام، وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم.

أم الخير : مه يا هذا! فإن بديهة[1] السلطان مُدْحِضَةٌ[2] لما يجب علمه.

معاوية : صدقت يا خالة. وكيف رأيت مسيرك؟

أم الخير : لم أزل في عافية وسلامة حتى أُوفِدْت إلى مُلك جَزْل وعطاء بَذْل. فأنا في عيش أنيق، عَند ملك رفيق.

معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم.

أم الخير : مه يا هذا!! لك والله من دحض المقال ما تُرْدى عاقبته.

معاوية : ليس لهذا أردناك.

أم الخير : إنما أُجري في ميدانك، إذا أجريت شيئاً أجريته، فاسأل عما بدا لك.

معاوية : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر[3]؟

أم الخير : لم أكن والله رويته قبل[4]، ولا زَوّرْته بعد[5]، وإنما كانت كلمات نفّثهنّ لساني حين الصدمة. فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت.

---

(١) بديهة: المفاجأة.

(٢) مدحضة: مبطلة. يقول تعالى في سورة الكهف الآية ٥٦: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾.

(٣) عمار بن ياسر: صحابي من المسلمين الأوائل، وممن عذب في الإسلام، أبوه ياسر وأمه سمية، أول شهيدين في الإسلام، ماتا في التعذيب، كان أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ، هاجر إلى الحبشة. وشهد جميع المشاهد مع الرسول ﷺ، كان من أخلص أنصار الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شهد معه الجمل ومعركة صفين وفيها قتل وهو ابن أربع وتسعين سنة.

(٤) أي لم أكن قد فكرت فيه من قبل.

(٥) زورته: زينته.

معاوية : لا أشاء ذلك.

ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم.

معاوية : أيكم حفظ كلام أم الخير.

فانبرى رجل من الحضور وقال:

الرجل : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد.

معاوية : هاته!!!

الرجل : كأني بها يا أمير المؤمنين، وعليها بُرْد[١] زَبِيديّ كثيف الحاشية، وهي على جمل أرمك [٢] وقد أحيط حولها حَوَاء [٣] وبيدها سوْط مُنْتشِرُ الضَّفْر، وهي كالفحل يَهْدر في شِقْشِقَتِهِ [٤] تقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ. اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ﴾[٥] إن اللّه قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يَدَعكم في عمياء مُبهمة. ولا سوداء مُدلهِمَّة [٦]. فإلى أين تريدون رحمكم اللّه؟؟ أفراراً عن أمير المؤمنين؟ أم فراراً من المؤمنين؟ أم فراراً من الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم اللّه عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتى نَعْلَمَ المَجاهِدِينَ مِنْكُم وَالْصَّابِرِين وَنَبلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [٧]

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول:

اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا

---

(١) البرد: ثوب مخطط موشى يلتحف به جمع برود، وأبراد، وأبرد.

(٢) جمل أرمك: أي رمادي اللون.

(٣) الحواء: ما يتخذ كالوسادة على الرحل.

(٤) الشقشقة: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج. يقال: شقشق الجمل: هدر. وشقشق العصفور: صوت. جمعها شقاشق.

(٥) سورة الحج الآية ١.

(٦) مدلهمة: شديدة السواد.

(٧) سورة محمد الآية ٣١.

رب أزمَّة[1] القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألِّف القلوب على الهدى، واردد الحقّ إلى أهله، هلموا رحمكم اللّه، إلى الإمام العادل، والوصي [2] الوفي. والصِّدِّيق الأكبر. إنها إحَنٌ بدْرية [3]، وأحقاد جاهلية،وضغائن أُحُدِية[4]وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس[5].

ثم قالت: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[6].

صبراً معشر الأنصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمين، حتى تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة. إنه واللّه من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار،

أيها الناس: إن الأكياس[7] استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها. واللّه أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه فإلى

---

(١) أزمة القلوب: مقود القلوب.

(٢) الوصي: إنما سمي الإمام علي بالوصي لقول رسول الله ﷺ: «وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

(٣) إحن بدرية: أي أحقاد بدرية نسبة إلى بدر، وهي أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين، تريد أن معاوية باثارته الحرب على علي إنما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر.

(٤) ضغائن أحدية: نسبة إلى معركة أحد.

(٥) بنو عبد شمس: قبيلة عربية سكنت شبه الجزيرة العربية، وأصلهم بطن من قريش، والنسب إليهم عبشمي.

(٦) سورة التوبة الآية ١١٢

(٧) الأكياس: مفردها كَيِّسْ، وهو الظريف الفطن، الحسن الفهم والأدب.

أين تريدون رحمكم اللّه عن ابن عم رسول اللّه ﷺ وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع من نَبْعَتِهِ، وخصه بسره، وجعله باب مدينته[1] وعلم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين[2]، فلم يزل كذلك يؤيده اللّه عز وجل بمعونته، ويمضي على سَنَنِ استقامته لا يعرج لراحته الدأب[3]. ها هو مغلِّق الهام، ومكسّر الأصنام، إذ صلَّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وفرَّق جمع هوازن[4]. فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً. وردة وشقاقاً. قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وباللّه التوفيق، وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته.

معاوية : واللّه يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، واللّه لو قتلتك ما حَرَجْتُ في ذلك.

أم الخير : واللّه ما يسوءني يا ابن هند أن يجري اللّه ذلك على يَدَيّ من يسعدني اللّه بشقائه.

معاوية : هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟

أم الخير : وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم عنه راضون، وقتلوه وهم له كارهون.

معاوية : إيهاً يا أم الخير! هذا واللّه أصلك الذي تبنين عليه[5].

أم الخير : لكن اللّه يشهد بما أنزل إليك أنزَلَهُ بعلمه والملائكة يشهدون وكفى باللّه شهيداً، ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة.

---

(١) تشير بذلك إلى قول الرسول ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».
(٢) تشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: «لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق».
(٣) الدأب: الجد والتعب.
(٤) تريد بذلك يوم حنين.
(٥) يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الذي دفعها إلى مناصرة علي.

معاوية : وما تقولين في طلحة بن عبيد اللّه[1]؟

أم الخير : ومـا عسى أن أقول في طلحـة؟ اغتيل في مـأمنـه وأتي من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة.

معاوية : وماذا تقولين في الزبير[2] ؟

أم الخير : يا هذا لا تجعلني كرجيع الصبيغ يُعرَك في المِرْكَنْ[3].

معاوية : حقاً لتقولن ذلك وما عزمت عليك.

أم الخير : وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وحـواريه[4]، وقد شهد له رسول اللّه الجنة، ولقد كان سباقـاً إلى كل مكـرمة في الإسلام .وأني أسألـك بحق اللّه يا معـاوية فـإن قريشـاً تحدث أنـك أحلمهـا، وأسألـك بأن تسعى بفضـل حلمك. وأن تعفيني من هـذه المسائل. وخذ فيما شئت من غيرها.

معاوية : نعم، وكرامة، قد أعفيتك.

وردها مكرمة إلى بلدها.

---

(١) طلحة بن عبيد الله: أحد السابقين الأولين والأبطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وسادس ستة اختارهم الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده، وأول صحابي بايع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ثم استمال رأيه، فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضي الله عنها يوم الجمل. وهناك أصيب بسهم أودى بحياته. رضي الله عنه.

(٢) الزبير بن العوام: قرشي، أسدي، ابن عمة رسول الله ﷺ، اعتنق الإسلام بأول صباه، صحابي من العشرة المبشرين بالجنة، حواري رسول الله ﷺ. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، قاتل في جميـع الغزوات مـع رسول الله ﷺ. ومن أهـل الشورى بـانتخاب الخليفة. اغتاله جرموز وهو يصلي. وكان أمر الزبير حيال علي شبيهاً بأمر طلحة، وكان قد انضم إلى جند عائشة فأرسل إليه علي يذكره بقول رسول الله ﷺ: «لتقاتله يريد تقاتل علياً ـ وأنت ظالم» فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق، فلما انتهى إلى واد يقال له وادي السباع اغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز كما تقدم.

(٣) الصبيغ: الثوب المصبوغ. والعراك: الدلك والحك والمركن الآنية: أي لا تتركني كالثوب المصبوغ يدلك بغير الماء.

(٤) حواريه: حواري الرجل: أي صفوته من الناس

لا خير في العيش بعد أمير المؤمنين

استأذنت بكارة الهلالية[1] على معاوية فأذن لها، فدخلت وكانت امرأة قد أسنت[2] و عشي بصرها[3] وضعفت قوتها، فهي ترعش بين خادمين لها. فسلمت ثم جلست، فقال لها معاوية:

معاوية : كيف أنت يا خالة؟.

بكارة : بخير يا أمير المؤمنين.

معاوية : غيَّرك الدهر.

بكارة : كذلك هو ذو غير، من عاش كبر، ومن مات قبر..

وكان في المجلس مروان بن الحكم[4] وعمرو بن العاص[5]. فابتدأ

(١) بكارة الهلالية: من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة والشعر والنثر والخطابة، كانت من أنصار الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكان لها صولة وجولة في صفين.

(٢) أسنت: كبر سنها.

(٣) عشي بصرها: ضعف بصرها.

(٤) مروان بن الحكم: الخليفة الأموي الرابع، انتقلت إليه الخلافة من السفيانيين إلى المروانيين، دافع عن عثمان بن عفان واشترك في معركة الجمل، وبويع للخلافة في الجابية بدمشق، انتصر على القيسيين أنصار ابن الزبير في معركة مرج راهط، مات بالطاعون في دمشق.

(٥) عمرو بن العاص: قائد عربي شهير، صحابي، داهية، انتصر على البيزنطيين في أجنادين (فلسطين) فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون، فتح الإسكندرية عام ٦٤٢م. وحكم مصر، بنى مدينة الفسطاط واشترك في التحكيم الذي أعقب معركة صفين، فرجح بدهائه كفة معاوية، توفي بالقاهرة.

مروان فقال:

مروان : ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين؟

معاوية : ومن هي؟.

مروان : هي التي كانت تعين علينا يوم صفين وهي القائلة:

يــا زيـد دونـك فــاستثـر من دارنــا
سيفــاً حســامــاً في الـتــراب دفيـنــا[1]

قــد كــان مــذخــوراً لـكــل عــظيمــة
فــالـيــوم أبــرزه الــزمــان مصــونــا[2]

عمرو : وهي القائلة يا أمير المؤمنين:

أتــرى ابـن هنـد لـلخـلافـة مـالـكـاً
هــيــهــات ذاك ومــا أراد بــعــيــد

مَنّتْــك نـفســك في الخــلاء ضــلالــة
أغــراك عــمــرو لـلشـقــا وسـعــيـد[3]

فــارجــع بــأنـكــد طــائــر بنـحــوسهــا
لامــت عــليــاً أســعــد وســعــود[4]

سعيد : وهي القائلة يا أمير المؤمنين:

قــد كــنــت آمــل أن أمــوت ولا أرى
فــوق الــمــنــابــر من أميــة خــاطـبــاً

فــاللّه أخّــر مــدتــي فـتـطاولـت
حـتـى رأيـت مـن الــزمــان عـجـائـبـا

---

(١) استثر: الثرة: الطعنة الكثيرة الدم. في بلاغات النساء: فاحتقر.
(٢) مذخور: مخبأ. في بلاغات النساء وفي العقد: قد كنت ادخره ليوم كريهة.
(٣) منتك نفسك: وعدتك نفسك. الخلاء: الفضاء الواسع الخالي. عمرو: تعني عمرو ابن العاص تقدمت ترجمته.
(٤) أنكد: من نكد وهو الشؤم. نحوس: من نحس أي غير ميمون، ذا شر، يقال: يوم نحس، وأيام نحسات، ونحوس مفرد نحس.

فــي كــل يــوم لا يــزال خــطيبــهــم
وسط الـجـمــوع لآل أحـمــد عــائـبــاً

ثم سكت القوم. فقالت بكارة:

بكارة : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني[1] فقصر مِحْجَني[2]، وكثر عجبي، وغشي بصري، وأنا والله قائلة ما قالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب،فامض لشأنك فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين.

معاوية : إنه لا يضعفك شيء. فاذكري حاجتك تُقضى.

فقضى حوائجها، وردّها إلى بلدها.

○

(١) اعتورتنى: أي تناوبتني من كل جانب.
(٢) المحجن: العصا. أو كل عود معطوف الرأس معوجٍ. جمع محاجن.



○ إن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ○

حدث ابن أبي طاهر عن الشافعي[1]
قال:
دخلت عكرشة بنت الأطروش [2] على
معاوية وبيدها عكاز في أسفله زجٌّ[3]
مسقي، فسلمت عليه بالخلافة وجلست
فقال لها معاوية:

معاوية : يا عكرشة الآن صرتُ أمير المؤمنين؟

عكرشة : نعم... إذ لا عليٌّ حي.

معاوية : ألستِ صاحبة الكور[4] المسدول والوسط المشدود، والمتقلدة بحمائل السيف، وأنت واقفة بين الصفين يوم صِفِّين تقولين:

«يا أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم. إن الجنّة دار لا يرحل عنها من قطنها ولا يحزن من سكنها، فأبتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم[5] همومها. كونوا قوماً

---

(١) الشافعي: (محمد بن إدريس) ١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ (٧٦٧ ـ ٨٢٠ م). إمام ومؤسس المذهب المعروف باسمه، وهو المذهب الشافعي، أسس علم الأصول، ولد في غزة ونشأ في مكة، درس على الإمام مالك بن أنس في المدينة. له: «الأم» و«الرسالة».

(٢) عكرشة بنت الأطروش: من ربات الفصاحة والبلاغة والبيان وقوة الحجة، ورد اسمها في أعلام النساء بنت الأطرش، وفي العقد الفريد، وصبح الأعشى، وابن عساكر وفي بلاغات النساء: بنت الأطش.

(٣) الزج: الحديدة في أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به.

(٤) الكور: الرحل. وهو ما يجعل على ظهر الجمل كالسرج.

(٥) تنصرم: تنقطع.

مستبصـــرين. إن معـــاويـــة دَلَفَ[1] إليكم بِعُجْم العـــرب، غُـلْفِ القلوب[2]، لا يفقهـون الإيمان، ولا يـدرون مـا الحكمـة، دعـاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى البـاطل فلبَّوْه فاللَّه اللَّه عبـاد اللَّه في دين اللَّه، وإياكم والتواكل فإن في ذلـك نقض عروة الإسـلام، وإطفاء نور الإيمان، وذهاب السُّنَّة، وإظهار الباطل.

هـذه بـدر الصغـرى، والعقبـة الأخـرى، قـاتلوا يـا معشـر الأنصـار والمهاجرين على بصيرة من دينكم، واصبروا على عـزيمتكم فكأني بكم غــداً قـد لقيتم أهــل الشـام كــالحمـر النهـاقـة[3]، والبغــال الشَّحَّاجة[4]، تَضْفَع[5] ضفع البقر، وتروث روث العَناق[6]».

سكت معاوية هنيهة ثم خاطبها:

معاوية : فـواللَّه لولا قـدر اللَّه وما أحب أن يجعـل لنا هـذا الأمر، لقـد انكفأ علي العسكران. فما حملك على ذلك؟.

عكرشة : يا أمير المؤمنين إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته.

معاوية : صدقت... اذكري حاجتك.

عكرشة : يا أمير المؤمنين... إن اللَّه قد ردَّ صدقـاتنا علينـا، وردّ أموالنـا فينا إلا بحقها. وإنا قد فقدنا ذلك فما يُنْعَش لنا فقير، ولا يجبر لنا كسير. فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة، واستعمل الظالمين.

معاوية : يا هذه... إنه تنوبنا أمور هي أولى بنـا منكم، من بحور تنبثق وتغـور

---

(١) دلف: مشى مقارب الخطوة كالمقيد.

(٢) غلف القلوب: جمع أغلف. والقلب الأغلف الذي كأنما غشي غلافه فهو لا يعي.

(٣) الحمر النهاقة: الحمير التي تنهق.

(٤) البغال الشحاجة: شحج البغل أو الحمار شحيجاً: صوت فهو شاحج.

(٥) تضفع: تضرط.

(٦) وتروث روث العناق: الروث خرء ذوات الحافر. والعناق: الأنثى من أولادالمعزقبل استكمالها الحول.

تنفتق[1].

عكرشة : يا سبحان اللّه! ما فرض اللّه لنا حقّاً جعل لنا فيـه ضرراً على غيـرنا ما جعله لنا وهو علاّم الغيوب.

معاوية : هيهات يا أهل العراق، فقهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا.

ثم أمر لها برد صدقتها وإنصافها وردَّها مكرمة.

○

(١) بحور تنبثق وتغور تنفتق: البحور جمع بحر، تنبثق: تندفع فجأة، تغور: تذهب في الأرض وتغيب فيها. تنفتق: تنكشف.



○ ولد يرشد أباه ○

حكي أن أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامي[1] رضي اللّٰه عنه، لما تحفظ: ﴿يـا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱللَّيْـلَ إِلاّ قَلِيلاً﴾[2] قال لأبيه.

أبو يزيد : يا أبتِ مَن الذي يقول اللّٰه تعالى له هذا؟

الوالد : يا بني ! ذلك للنبي محمد ﷺ.

أبو يزيد : يا أبتِ! ما لك لا تصنع كما صنع النبي ﷺ! !

الوالد : يا بني ! إن قيام الليل خصص به النبي ﷺ، وبافتراضه دون أمته، (فسكت عنه)

فلما تحفظ أبو يزيد قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي ٱللَّيْلِ ونِصْفَهُ وثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [3].
(قال لأبيه).

أبو يزيد : يا أبت إني أسمع طائفة كانوا يقومون الليل، فمن هذه الطائفة ؟

الوالد : يا بني ! أولئك الصحابة رضوان اللّٰه عليهم أجمعين.

---

(١) أبو يزيدالبسطامي : هو طيفور بن عيسى بن شروسان. وكان جده مجوسياً، وكان لعيسى ثلاثة أولاد، هم : آدم وهو أكبرهم، وطيفور هذا وهو أوسطهم، وعلي. وكان الثلاثة زهاداً عباداً، وكان أبو يزيد أفضل أهل زمانه، وأجلهم محلاً، كان له لسان في المعارف والتدقيق، وكان صاحب أحوال وكرامات، وقد شاع ذكره في أرجاء المعمورة. سئل أبو يزيد : بأي شيء وجدت هذه المعرفة فقال : ببطن جائع وبدن عار.

(٢) سورة المزمل الآية ١ ـ ٢.

(٣) سورة المزمل الآية ٢٠.

أبو يزيد : يا أبت! فأيَّ خير في ترك ما عمله النبي ﷺ وأصحابه؟!

الوالد : صدقت يا بني.

(فكان أبوه بعد ذلك يقوم من الليل ويصلي، فاستيقظ أبو يزيد ليلة فإذا أبوه يُصلي. فقال له):

أبو يزيد : يا أبت! علمني كيف أتطهر وأصلي معك!

الوالد : يا بني آرقد فإنك صغير بعدُ.

أبو يزيد : يا أبت إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، أقول لربي: إني قلت لأبي: كيف أتطهر لأصلي معك؟ فأبى وقال لي: ارقد فإنك صغير بعد! أتحب هذا.

الوالد : لا واللّه يا بني ما أُحب هذا.

(وعلمه فكان يصلي معه! رحمة الله عليهما)

○ قوّة الحجة وحُسن البيان ○

كانت أم جعفر بن يحيى[1] ذا مكانة سامية عند الرشيد، يشاورها، ويتبرك برأيها. وكان لا يحجبها أبداً، ولا استشفعته لأحد إلا شفعها. وآلت أم جعفر أن لا تدخل عليه إلا مأذوناً لها، ولا تشفع لأحد مقترف ذنباً.

قال سهل بن هارون[2]: فكم أسير فكّت، ومهموم عنده فرّجت ومستغلق فتحت.

ولما فتك الرشيد بابنها، وقذف بزوجها وبقية أسرتها في غياهب السجن بعد إيقاعه بالبرامكة، طلبت الإذن عليه في دار البانوقة[3]. ومتّت[4] بوسائلها إليه، فلم يأذن لها، ولا أمر بشيء فيها.

فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها. واضعة لثامها، محتفية[5] في مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد، فدخل

---

(١) أم جعفر بن يحيي: هي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة، مرضعة الرشيد مع ابنها جعفر، لأن أمه ماتت عن مهده. حظيت عند الرشيد بمكانة سامية عالية.

(٢) سهل بن هارون: كاتب بليغ حكيم، يلقب بزرجمهر الإسلام، فارسي الأصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه، ثم خدم المأمون. كان يتعصب للعجم.

(٣) دار البانوقة: مركز الضيافة.

(٤) متت: توسلت. والماتة: القرابة والحرمة والوسيلة.

(٥) محتفية: أي حافية.

عبد الملك بن الفضل[1]، فقال:

عبد الملك : ظئر[2] أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة الواحد.

الرشيد : ويحك يا عبد الملك! أو ساعية؟

عبد الملك : نعم يا أمير المؤمنين حافية!

الرشيد : أدخلها يا عبد الملك، فرب كبدٍ غذتها، وكُرْبة فرجتها، وعورة سترتها.

(فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها، ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه) فقالت:

أم جعفر : يا أمير المؤمنين: أيعدو[3] علينا الزمان، ويجفونا[4] خوفاً لك الأعوان، ويحرّدك[5] بنا البهتان[6]، وقد ربيتك في حجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوي ودهري.

الرشيد : وما ذلك يا أم الرشيد[7]؟

أم جعفر : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته، وإشفاقه عليه، وتعرّضه للحتف في شأن موسى أخيه.

الرشيد : يا أم الرشيد.. أمر سبق، وقضاء حُمّ[8]، وغضب من الله نفذ.

---

(١) عبد الملك بن الفضل: حاجب هارون الرشيد، تربى في دار الرشيد وبقي في خدمته وملازمته.

(٢) الظئر: المرضعة لولد غيرها. وفي المثل: (ظئر رؤوم خير من أم سؤوم).

(٣) يعدو: يجفو ويظلم.

(٤) يجفو: من الجفاء، جفا الشيء: نبا عنه ولم يطمئن إليه.

(٥) حرد: الغضب.

(٦) البهتان: الزور. الكذب المفترى.

(٧) لم ينادها الرشيد بكنيتها رفعه بمكانتها.

(٨) حم الأمر حماً: قضي وقدر.

أم جعفر : يا أمير المؤمنين ﴿يَمْحُوا اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَاب﴾[1].

الرشيد : صدقت. . فهذا مما لم يمحه الله.

أم جعفر : الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد ملياً ثم قال:

الرشيد : وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع[2]

أم جعفر : أما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وأردفت تقول
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاس وَٱللَّه يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِين﴾[3]
فأطرق الرشيد ملياً ثم قال:

الرشيد : إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد
إليه بوجه آخر الدهر تُقْبِل

أم جعفر : وأنا أقول:
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني
يمينك فانظر أي كفٍّ تَبَدَّل

الرشيد : رضيت.

أم جعفر : فهبه لي. فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ شَيئاً للّهِ».
(فأكب هارون ملياً ثم رفع رأسه وقال):

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٩.
(٢) تميمة: العوذة. وهي ما يعلق في العنق لدفع العين. جمعها تمائم.
(٣) سورة آل عمران ١٣٤.

الرشيد : ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[1]

أم جعفر : يا أمير المؤمنين: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنون بِنَصْرِ اللَّه يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم﴾[2]. واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيتك[3] ما استشفعت إلا شفعتني.

الرشيد : واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً.

(فلما رأته صرّح بمنعها، ولاذ عن[4] طلبها، أخرجت حقاً[5] من زمردة خضراء[6]، فوضعته بين يديها).

الرشيد : ما هذا؟

(ففتحت عنه قفلاً من ذهب، فأخرجت منه ذوائبه[7] وثناياه، فدعمست جميع ذلك في المسك) وقالت:

أم جعفر : يا أمير المؤمنين.. استشفع إليك، واستعين بالله عليك، وبما صار معي من كريم حسنك، وطيب جوارحك، ليحيى عبدك.

(فأخذ هارون ذلك فلثمه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومرّ البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحُق وقال لها):

الرشيد : لَحَسَنٌ ما حفظت الوديعة.

أم جعفر : وأهل للمكافأة أنت.

---

(١) سورة الروم اية ٤.

(٢) سورة الروم الآية ٥.

(٣) اليتك: ما عهدتك.

(٤) ذعن: خضع وانقاد.

(٥) حقاً: وعاء من خشب أو عاج أو ما شابهه.

(٦) زمردة خضراء: حجر بلوري كريم لونه يراوح بين الأخضر والأزرق، يقال له: زبرجد.

(٧) الذوائب: من ذؤابة، أي كل شيء أعلاه، والذؤابة: صغيرة الشعر المرسلة.

(فسكت، وأقفل الحق ودفعه إليها) وقال:

الرشيد : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[1].

أم جعفر : والله يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[2].
ويقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ آللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُم﴾[3]

الرشيد : وما ذلك يا أم الرشيد؟

أم جعفر : أقسمت لي به أن لا تحجبني ولا تمهنني[4].

الرشيد : يا أم الرشيد.. أتشريه مُحَكِّمَة فيه؟[5]

أم جعفر : أنصفت، وقد فعلت غير مستقيلة، ولا راجعة عنك.

الرشيد : بكم؟

أم جعفر : برضاك عمن لا يُسْخِطك.

الرشيد : يا أم الرشيد.. أما لي عليك من الحقّ مثل الذي لهم؟

أم جعفر : بلى!! أنت أعز علي، وهم أحب إلي.

الرشيد : فتحكمي في ثمنه بغيرهم.

أم جعفر : بلى.. قد وهبتكه، وجعلتك في حلٍّ منه.

(وقامت عنه، وبقي مبهوتاً ما يجبر لفظة، وخرجت فلم تعد إلى القصر، ولا شوهدت أبداً).

○

---

(١) سورة النساء الآية ٥٨.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

(٣) سورة النحل الآية ٩١.

(٤) تمهنني: من المهانة وهي الحقارة والصغار والقلة.

(٥) أي اتفتدي أسيرك به أو ما تشائين.



○ اتق الله يا أمَة الله ○

قال العجلي في كتابه «الثقات»:

حدثني أبي عبد الله قال: كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة، وقالت لزوجها:

المرأة : أتُرى أحداً يرى هذا الوجه ولا يُفتن به؟

الرجل : نعم.

المرأة : من؟!

الرجل : عبيد بن عمير

المرأة : فأذن لي فيه فلأفتننه!

الرجل : قد أذنت لك!

(فأتته فاستفتته، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن مثل فلقة القمر! فقال لها:

عبيد : يا أمة الله! اتق الله!

المرأة : إني قد فُتنتُ بك، فانظر في أمري!.

عبيد : إني سائلك عن شيء، فإن أنتِ صدقتِ نظرتُ في أمرك.

المرأة : لا تسلني عن شيء إلا صدقتُك!

عبيد : أخبريني لو أن ملك المـوت أتاك ليقبض روحـك، أكان يسـرّك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

المرأة : اللهم لا . .

عبيد : صدقت . . فلو أن الناس أعطوا كتبهم، ولا تدرين أتـأخذين كتـابك بيمينك أم بشمالك؟ أكان يسرّك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

المرأة : اللهم لا . .

عبيد : صدقت . . فلو أردتِ المرور على الصـراط، ولا تدري أتنجين أم لا تنجين؟! أكان يَسرّك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

المرأة : اللهم لا . .

عبيد : صـدقت . . فلو جيء بـالمـوازين وجيء بـك، لا تـدرين تُخِفِّين أم تثقلين! أكان يسرَك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

المرأة : اللهم لا . .

عبيد : صدقت . . فلو وقفت بين يدي الله للمسألة، أكان يسرّك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

المرأة : اللهم لا . .

عبيد : صـدقت . . اتق الله، يـا أمـة الله! فقـد أنعم الله عليـك، وأحسن إليك .

○

○ امرأة لها كرامة ○

بعد أن هاجر أبو العكر إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة، ترك زوجته أم شريك[1] في منزلها.

فجاء أهل أبي العكر وقالوا لها:

الجميع : لعلكِ على دينه؟

أم شريك : إي والله إني لعلى دينه.

الجميع : لا جرَمَ والله . . لنعذبنَّكِ عذاباً شديداً!

(فارتحلوا بها من دارها، وكانت بذي الخلصة[2]. فساروا يريدون منزلاً بعيداً، وحملوها على جمل ثَفَالٍ[3]. شرِّ ركابهم وأغلظه يطعمونها الخبز بالعسل، ولا يسقونها قطرة من ماء! حتى إذا انتصف النهار، وسخنت الشمس، نزلوا فضربوا أخبيتهم[4] وتركوها في الشمس، حتى كاد أن يذهب عقلها وسمعها وبصرها . .

وفعلوا ذلك بها ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث جاؤوها وقالوا لها:)

---

(١) أم شريك: هي غُزَيّه بنت جابر الدوسية، من الأزد، كانت امرأة غنية من الأنصار، عظيمة النفقة في سبيل الله تعالى، أسلمت وحسن إسلامها، ولها مقامات.

(٢) ذو الخلصة: بلد بالدهناء معروف، أرض بالبادية في أعين ماء بالحجاز يقول فيها الشاعر: أشبهن من بقر الخلصاء أعينها

وهن أحسن من صيرانها صوراً

(٣) ثفال: بطيء.

(٤) أخبيتهم: خيامهم.

الجميع : اَتركي ما أنت عليه!

أم شريك : فما دريت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة فكانت تشير بأصبعها إلى السماء بالتوحيد.

(فوالله إنها لعلى ذلك. وقد بلغ منها الجهد والتعب والتهالك من العطش، إذ وجدت برد دلوٍ في صدرها، فأخذته فشربت منه نفساً واحداً ثم انتزع منها. .

فذهبت تنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض، فلم تقدر عليه، ثم دلّي إليها ثانية، فشربت منه نفساً، ثم رُفع، فذهبت تنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض.

ثم دلي إليها الثالثة، فشربت منه حتى رويت وصبت على رأسها ووجهها وثيابها.

فخرج القوم إليها ونظروا الماء فقالوا لها):

الجميع : من أين لك هذا يا عدوة الله؟!

أم شريك : إن عدوة الله غيري: من خالف دينه. وأما قولكم: من أين هذا؟ فمن عند الله رزقاً رزقنيه الله تعالى.

(فانطلقوا سراعاً إلى قِرَبهم وإداواهم، فوجدوها مربوطة لم تحل، فقالوا):

الجميع : نشهد أن ربك هو ربُّنا، وأن الذي رزقك ما رزقك في هذا الموضع، بعد أن فعلنا بك ما فعلنا: هو الذي شرع الإسلام.

فأسلموا جميعاً، وهاجروا إلى رسول الله ﷺ، وكانوا يعرفون فضل أم شريك عليهم، وما صنع الله جل شأنه إليها. .[1].

○

(١) الطبقات الكبرى ـ بتصرف ـ الجزء الثامن صفحة ١٥٥.

○ الزوجة الصالحة ○

حكي عن الشعبي[1] رحمـه الله تعـالى أنه قال: لقيني شريح[2] فقال لي:

شريح : يا شعبي! عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهنّ عقولاً.

الشعبي : وما رأيت من عقولهن؟

شريح : أقبلت من جنازة ظهراً، فمررت بدورهن، وإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جـانبها جـارية كـأحسن ما رأيت من الجـواري، فعدلت إليها واستسقيت، وما بي عطش! فقالت لي:

الجارية : أيّ الشراب أحب إليك؟

العجوز : ويحك يا جارية! ائتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً.

شريح : ومن تكون هذه الجارية منك؟

---

(١) الشعبي: هـو عامـر بن شراحيل بن عبد ذي كبـار الحميري، أبـو عمرو، راويـة من التابعين. يضرب المثل بحفظه، ولد سنة ١٩ هـ في الكوفة، ونشأ فيها، وكان ضئيلاً نحيفاً، سئل ذات يوم عما بلغ إليـه حفظه: فقـال: ما كتبت سـوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، وهو من رجـال الحديث الثقاة، استقضاه عمـر ابن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فقيهاً وشاعراً، توفي بالكوفة سنة ١٠٣هـ

(٢) شـريح: هـو شريـح بـن الحارث بن قيس الجهم الكنـدي، أبو أميـة، من أشهر القضاة الفقهاء في صـدر الإسلام، وأصله من اليمن، ولي قضـاء الكوفـة في زمن: عمـر، وعثمـان، وعلي، ومعـاويـة، رضي الله عنهم. واستعفى في زمن الحجـاج، فأعفاه سنة ٧٧ هـ. وكان ثقة في الحديث مأمونـاً في القضاء، لـه باع في في الأدب والشعر، وعمر طويلاً. توفي بالكوفة سنة ٧٨ هـ.

العجوز : هي زينب بنت جرير[1] إحدى نساء حنظلة.

شريح : هي فارغة أم مشغولة؟

العجوز : بل فارغة.

شريح : أتزوجينيها؟

العجوز : إن كنت كفاء[2].

(فتركتها ومضيت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتنعت مني القائلة[3] فلما صليت الظهر، أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف. علقمة[4]، والأسود[5]، والمسيب[6]، ومضيت أريد عمها. فاستقبلنا وقال:

العم : ما شأنك أبا أمية؟

شريح : زينب ابنة أخيك.

العم : ما بها عنك رغبة.

(فزوجنيها، فلما صارت في حبالي ندمت وقلتُ في نفسي أي شيء صنعت بنساء بني تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها! ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب، وإلا كان ذلك).

شريح : فلو شهدتني يا شعبي! وقد أقبلت نساؤها حتى أُدخلت علي. وقلت لها:

شريح : إن من السُّنَّة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين،

---

(١) زينب بنت جرير:

(٢) لم تقل «كفؤاً» وهي لغة بني تميم.

(٣) القائلة: من القيلولة أي النوم بعد الظهيرة.

(٤) علقمة: بن مجزز بن الأعور المدلجي. قائد، من الصحابة، شهد اليرموك، وحضر الجابية، كان عاملاً لعمر على فلسطين.

(٥) الأسود: بن المنذر الأويسي النخعي، تابعي، فقيه، من الحفاظ، كان عالم الكوفة في عصره.

(٦) المسيب: بن نجبة بن ربيعة بن رياح الفزاري، كان على رأس قومه، شهد القادسية وفتوح العراق. وكان مع الإمام علي في مشاهده. سكن الكوفة. كان شجاعاً بطلاً متعبداً ناسكاً.

ويسأل الله تعالى من خيرها، ويتعوذ من شرها.

(فتوضأت، فإذا هي تتوضأ بوضوئي! وصليت، فإذا هي تصلي بصلاتي! فلما قضيت صلاتي، أتتني جواريها فأخذت ثيابي، وألبستني ملحفة قد صبغت بالزعفران. فلما خلا البيت، دنوت منها فمددت يدي إلى ناحيتها، فقالت):

زينب : على رسلك[1] أبا أمية! الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله. أما بعد، فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيِّن لي ما تحب فآته، وما تكره فأجتنبه. فإنه قد كان لك منكح في قومك، ولي في قومي مثل ذلك. ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت، فاصنع ما أمرك الله به، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان. أقول قولي هذا، واستغفر الله العظيم، لي ولك ولجميع المسلمين.

شريح : فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة بذلك الموضع فقلت: الحمد لله أحمده واستعينه وأصلي على محمد وآله، أما بعد، فإنك قد قلتِ كلاماً إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظاً لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا، وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فابثثيها، وما رأيت من سيئة فاستريها.

زينب : كيف محبتك لزيارة الأهل؟

شريح : ما أحب أن يملني أصهاري.

زينب : فمن تحب من جيرانك يدخل دارك، آذن له. ومن تكرهه، أكرهه؟

شريح : بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

وقال شريح يخاطب الشعبي:

شريح : فبتُّ معها يا شعبي أنعم ليلة! ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحبُّ، فلما كان رأس الحول، جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى. قلت من هذه؟

(1) على رسلك: أي اتئد.

زينب : هي أمي.

شريح : مرحباً وأهلاً وسهلاً،

(فلما جلستُ أقبلت العجوز وقالت):

العجوز : السلام عليك يا أبا أمية.

شريح : وعليك السلام، ومرحباً بك وأهلاً.

العجوز : كيف رأيت زوجتك؟

شريح : خير زوجة، وأوفق قرينة، لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريّضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيراً.

العجوز : أبا أمية! إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين.

شريح : وما هما؟

العجوز : إذا ولدت غلاماً، أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط! فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللّة.

شريح : والله! لقد أدبت فأحسنتِ الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة.

العجوز : كيف تحب أن يزورك أصهارك؟

شريح : ما شاؤوا.

(فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية). فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة، لم أعب عليها شيئاً.

وكان لي جار من كندة ، يُفزع امرأته ويضربها! فقلت:

رَأيتُ رجالاً يَضربونَ نساءَهم
فَشَلّتْ يميني يومَ تضربُ زينبُ

أأضربها مِنْ غيرِ ذنبٍ أتت بهِ
فما العدْلُ منّي ضَربَ من ليس يُذْنبُ

فزينبُ شمسٌ والنساء كواكِبٌ
إذَا طَلَعَت لَمْ يبدُ مِنْهُنّ كوكبُ

○ التوجيه الصحيح ○

خرج فروخ إلى الغزو، وأودع زوجته أم ربيعة ابن أبي عبد الرحمن فروخ ، ثلاثين ألف دينار، وربيعة حمْل في بطن أمه.

ولم يعد إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، عاد فروخ بعد ذلك، بعد سبع وعشرين سنة، وهو راكب فرساً وفي يده رمح. فنزل ودفع الباب برمحه، فخرج ربيعة وقال:

ربيعة : يا عدو الله! أتهجم على منزلي؟

فروخ : يا عدو الله! أنت دخلت على حرمي.

(فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس[1]. فأتوا يعينون ربيعة، وكثر الضجيج ، وكل منهما يقول: لا فارقتك فلما بصروا بمالك سكتوا فقال مالك):

---

(١) مالك بن أنس: (الأصمعي، أبو عبد الله). (٩٣ - ١٧٩ هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥) م أحد الأئمة الأعلام، مؤسس المذهب المعروف باسمه، وهو أحد المذاهب الفقهية الكبرى في الإسلام، ولد وتوفي في المدينة، أصله من حمير، له: «الموطأ» الذي هو أساس المذهب، و «الرد على القدرية» و «الرسالة إلى الرشيد» و «المدونة الكبرى».

مالك : أيها الشيخ! لك سعة في غير هذه الدار.

فروخ : هي داري وأنا فروخ!

فلما سمعت امرأته كلامه خرجت إليهم وقالت:

أم ربيعة : هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به!!

(فاعتنقا جميعاً وبكيا، ودخل فروخ المنزل وقال):

فروخ : هذا ابني؟

أم ربيعة : نعم.

فروخ : أخرجي المال الذي عندك.

أم ربيعة : قد دفنته وأنا أخرجه.

(ثم خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك، والحسن ، وأشراف أهل المدينة، وأحدق[1] الناس به.

أم ربيعة : أخرج فصلِّ في مسجد رسول الله ﷺ.

(فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه.

فروخ : من هذا الرجل؟

أحد الحضور: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن!

فروخ : لقد رفع الله ابني.

(ورجع إلى منزله، وقال لوالدته):

فروخ : لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها!

أم ربيعة : أيما أحب إليك، ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟

فروخ : لا والله.. بل هذا.

أم ربيعة : انفقت المال كله.

فروخ : فوالله ما ضيّعتِه!

رحمها الله كيف وجهت ولدها إلى سعادة الدارين.

---

(١) أحدق: أحاط

○ الكرامة العربية ○

عزل الروم ملكتهم «ريني»[1] وهلكت بعد أشهر، وأقاموا عليهم «نقفور»[2] والروم تزعم أن نقفور من ولد جفنة الغساني[3] الذي تنصّر! وكان نقفور مثل الملك يلي الديوان فكتب نقفور هذا الكتاب:

«من نقفور ملك الروم، إلى هارون الرشيد ملك العرب! أما بعد، فإن الملكة كانت قبلي، أقامتك مقام الرُّخ[4]، وأقامت نفسها مقام البيذق[5] فحملت إليك من أموالها، وذلك لضعف النساء وحمقهن.

فإذا قرأت كتابي هذا فارْدُدْ ما حصل قبلك وافتد نفسك، وإلا فالسيف بيننا».

فلما قرأ أمير المؤمنين هارون الرشيد الكتاب اشتد غضبه، وتفرّق جلساؤه خوفاً من بادرة تقع منه، فدعا الرشيد بدواة وكتب بيده على ظهر الكتاب:

---

(١) ريني: ورد اسمها كذلك زيني حكمت الروم وماتت بعد خمسة أشهر من خلعها.

(٢) نقفور: من كبار ملوك الروم تولى الملك بعد عزل الملكة ريني.

(٣) جفنة: هو جفنة بن عمرو فريقياء بن عامر، أمير غساني من قدماء الجاهلية، قيل إنه أول من تولى قيادة الغسانيين إلى أطراف الشام الجنوبية، وإليه ينسب أمراء الغساسنة فيقال لهم: آل جفنة.

(٤) الرُّخ: طائر كبير يحمل الكركدن، والإرخاخ: المبالغة في الشيء.

(٥) البيذق: الصغير الخفيف.

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه».

ثم ركب من يومه وأسرع حتى نزل مدينة هرقلة[1]، وأوطأ الروم ذلاً وبلاءً، فقتل وسبى، وذل نقفور وطلب الموادعة على خراج يحمله، فأجابه.

فلما عاد الرشيد إلى «الرقة»[2] نقض نقفور! فلم يجسر أحد أن يبلغ الرشيد، حتى عملت الشعراء أبياتاً يلوحون بذلك[3].

فقال: أوَقد فعلها؟! فكرَّ راجعاً في مشقة الشتاء، حتى أناخ بفنائه ونال مراده.

وأخذ منه الجزية أضعافاً مضاعفة جزاء غدره وقال المؤرخون إن الضربات التي أنكلها الرشيد لدولة الروم لم تستيقظ منها عشرات السنين.

○

---

(١) هرقلة: هي اليوم ايرغلي، عاصمة بيثينيا (آسية الصغرى) في القرون الوسطى، حاصرها هارون الرشيد سنة ٨٠٦. تشتهر بمناجم الفحم.

(٢) الرقة: مدينة في سورية، شيدها الإسكندر المقدوني. سكنتها قبيلة مضر العربية، بنى فيها المنصور مدينة جديدة سماها الرفيقة عام ٧٧٢. جعلها هارون الرشيد. بعد نكبة البرامكة عاصمته الصيفية. وبنى فيها قصر السلام، فعرفت بمدينة الرشيد.

(٣) قال شاعر من جند الرشيد وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف:

نقَضَ الذي أعطيته نقفور
فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه
غنم أتاك به الإله كبير

فتحٌ يزيد على الفتوح يؤمّنا
بالنصر فيه لؤاؤك المنصورُ

○ الأمانة طريق النجاح ○

كان بمدينة (مرو)[1] رجل اسمه «نوح بن مريم» وكان رئيس مرو وقاضيها، وكان له نعمة كبيرةوحال موفورة، وكانت له ابنة ذات حُسن وجمال، وبهاء وكمال، قد خطبها جماعة من الأكابر والرؤساء وذوي، النعمة والثروة، فلم يُنعم بها لأحد منهم، وتحيّر في أمرها، ولم يدر لأيهم يزوجها. وكان يقول: إن زوجتها لفلان أسخطت فلاناً.

وكان له غلام هندي تقي اسمه: مبارك، وكان له كرمٌ عامر الأشجار والفاكهة والثمار.

فذات يوم قال للغلام:

نوح : أريد أن تمضي وتحفظ الكرم.

(فمضى الغلام وأقام في الكرم شهراً، فجاء سيده في بعض الأيام إلى الكرم لينظره، وقال له):

نوح : يا مبارك! ناولني عنقود عنب.

(فناوله عنقود العنب، فوجده حامضاً، فقال له):

نوح : أعطني غير هذا! فناوله عنقوداً فوجده حامضاً، فقال له أيضاً.

---

(١) مرو: مدينة في الإتحاد السوفياتي، هي اليوم ماري، فتحها العرب عام ٦٥١. منها خرج أبو مسلم الخراساني. وقد خرب المغول سدها العظيم مصدر ثرواتها وخيراتها.

نوح : ما السبب في أنك لا تناولني من هذا الكثير غير الحامض.

مبارك : لأني لا أعلم أحامض هو أم حلو!.

نوح : سبحان اللَّه! لك في هذا الكرم شهر كامل، ولا تعرف الحامض من الحلو؟!..

مبارك : وحقك أيها السيد، إنني ما ذقته، ولم أعلم أحامض هو أم حلو!.

نوح : لم تأكل منه؟

مبارك : لأنك أمرتني بحفظه، ولم تأمرني بأكله!! فما كنت لأخونك!!

(فعجب القاضي منه وقال له):

نوح : حفظ اللَّه عليك أمانتك!!

(ولما علم القاضي أن الغلام غزير العقل، قال له):

نوح : أيها الغلام... قد وقع لي رغبة فيك، وينبغي أن تفعل ما آمرك.

مبارك : أنا مطيع للَّه ثم لك.

نوح : اعلم أن لي بنتاً جميلة، وقد خطبها كثير من الرؤساء والمتقدمين، ولا أعلم لمن أزوجها فأشر عليّ بما ترى؟!..

مبارك : إن الكفار في زمن الجاهلية كانوا يريدون الأصل والنسب، والبيت والحسب، واليهود والنصارى، يطلبون الحُسْن والجمال، وفي عهد رسول الله ﷺ كان الناس يطلبون الدين والتقى. أما في زماننا هذا. فالناس يطلبون المال! فاختر من هذه الأربعة ما تريد.

نوح : قد اخترتُ الدين والتُّقى والأمانة، أريد أن أزوجك ابنتي، لأني قد وجدت فيك: الصلاح، والديانة، والأمانة، وجربت منك العفّة والصيانة.

مبارك : أيها السيد، أنا عبد رقيق، هندي أسود، ابتعتني[1] بمالك، كيف تزوجني بابنتك؟! وكيف تختارني ابنتك وترضاني؟.

نوح : قم بنا إلى البيت، لندبر هذا الأمر.

---

(١) ابتعتني: اشتريتني.

(فلما صارا إلى المنزل، قال القاضي لزوجته):

نوح : اعلمي أن هذا الغلام الهندي دَيِّنٌ تقيّ، وقد رغبت في صلاحه، وأريد أن أزوجه ابنتي، فما تقولين؟

الزوجة : الأمر إليك، ولكن أمضِ إلى الصبية وأخبرها، وأعيد عليك جوابها.

(فجاءت المرأة إلى الصبية وأدت إليها رسالة أبيها، فقالت البنت):

البنت : مهما أمرتماني به فعلته ولا أخرج من تحت حكمكما، ولا أعاندكما بالمخالفة، بل أبركما[1].

(١) من كتاب «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» صفحة ٨٥، للإمام أبي حامد محمد الغزالي رحمه الله.



○ أفضل الجهاد ○

يقول رسول اللَّه ﷺ: «أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ تُقال عند سلطان جائر»[1].

قصة هذا الفتى التي نرويها كان لا يخاف في اللَّه أحداً، ولا يخشى حاكماً ظالماً، إذ كان يضع نصب عينيه قول الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه.

دخل غلام لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره مجلس الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين في عهد المروانيين.

فجال بصره في المجلس وانبرى قائلاً:

الفتى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِين فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ ، وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] صَدَقَ اللَّهُ العظيم.

(دَهِشَ الحجاج من قراءة هذا الفتى للقرآن الكريم ولم يُطلب منه، فقال له على الفور):

الحجاج : يا غلام.. إني أرى لك عقلاً وذهناً أحفظت القرآن؟.

الفتى : (مستهزئاً): أوخفت على القرآن من الضياع حتى أحفظه: ﴿إِنَّا

---

(١) حديث صحيح.

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٢٨ ـ ١٣٥.

نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]

الحجاج : أو استظهرت القرآن؟

الفتى : معاذ اللّه أن أجعل القرآن ورائي ظهرياً قل أوعيت القرآن في صدرك. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِم كَأَنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

(فساء الحجاج أن يرى هذا الفتى الصغير يتفوّق عليه بذكائه، إذ كان الحجاج من أدهى وأذكى أهل زمانه، فسارع إلى صرفه لكنه سأله):

الحجاج : ما اسمك؟

الفتى : عبد الله.

الحجاج : ومن أبوك.

الفتى : الذي زرعني.

الحجاج : ومن أمك؟.

الفتى : التي ولدتني.

الحجاج : أينَ ولدت؟

الفتى : في الجبال.

الحجاج : أين نشأت؟

الفتى : في القفار.

الحجاج : أمجنون أنت؟.

الفتى : لو كنت مجنوناً لما وقفت بين يديك.

الحجاج : ناولني هذه الدواة[3]؟

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠١.

(٣) الدواة: أداة يوضع فيها الحبر للكتابة، محبرة.

الفتى : لا . . .

الحجاج : ولم؟ . .

الفتى : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها.

الحجاج : بل أردت أن أكتب لك خمسين ألف درهم.

(فصار الفتى يضحك بصوت عال جداً)

الحجاج : وما يضحكك؟.

الفتى : عجبت لجرأتك على اللَّه. . . اِذهب وتصدق بهذا المال على من أهلكت راعيهم.

(عندها لم ير الحجاج بداً من قتل هذا الفتى، لكنه يريد حجّة ولو يسيرة، فإذا ما أخطأ فسوف يقتله بذنب الخطأ، وقال له):

الحجاج : اقرأ لي شيئاً من القرآن. !!!

الفتى : أعوذ باللَّه منك ومن الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللَّهِ الرّحمنِ الرّحيم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَخْرُجونَ[1] مِنْ دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[2]

الحجاج : وَيحك. . . أتجتريءُ على اللَّه ﴿يدْخُلُونَ﴾ وليس يَخْرُجُونَ! . .

الفتى : نعم كانوا يدخلون أما الآن في أيامك وعهدك وولايتك فإنهم يخرجون.

(في هذه اللحظة كاد الحجاج أن ينهض من مكانه وينقض على هذا الفتى الصغير ويخنقه بيده ليرتاح منه لكنه لم يستطع أمام الحضور، إلا أنه أحب أن يستزيده بالأسئلة علّه يُخطىء خطأً فاحشاً فيكون له الحق في قتله وقال له):

الحجاج : ما رأيك في أمير المؤمنين؟

الفتى : رحم اللَّه أبا الحسن.

---

(١) لم ترد هكذا في القرآن الكريم، إنما وردت ﴿يدخلون﴾.

(٢) سورة النصر الآيات ١ ـ ٢ ـ ٣. جميعها.

الحجاج : بل أردت عبد الملك بن مروان[1].

الفتى : على الفاسق الفاجر لعنة اللَّه.

الحجاج : ولم استحق منك هذه اللعنة.

الفتى : حكّمَك على الناس وأنت ظالم، تستبيح دماءهم وتصادر أموالهم، وتمعن في حرمانهم.

(عندها قام رجل من الحضور وأحب أن ينقذ الحجاج من هذا الموقف الصعب وقال):

أحدهم : هبه لي يا مولاي... هبه لي يا مولاي!...

الحجاج : هو لك، لا بارك اللَّه لك فيه.

الفتى : (ساخراً) واللَّه لا أدري أيّهما أحمق من الآخر... الواهب أم المستوهب.

أحدهم : أأنجيك من القتل وتقابلني بهذا؟.

الفتى : أو تملك لنفسك ضراً أو نفعاً.

أحدهم : لا..

الفتى : وكيف تملك لنفسي!!.

(عندها أدرك الحجاج وتيقن أن ليس باستطاعته أن يقهر ويهزم هذا الفتى. فألان له الطرف وقال له):

الحجاج : يا غلام... قد أمرنا لك بمئة ألف درهم، تستعين بهم، وتخرج من مجلسي هذا، ولئن عدت إليه فسأدق عنقك.

(هز الفتى رأسه باستهزاء وقال للحجاج وهو يهم بالخروج): .

---

(١) عبد الملك بن مروان: (٢٦ - ٨٦ هـ / ٦٤٦ - ٧٠٥ م): الخليفة الأموي الخامس ٦٥ هـ / ٦٨٥ م، ولد بالمدينة المنورة وتوفي بدمشق، وحد الأمبراطورية العربية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله منافس البيت الأموي على الخلافة عام ٦٩٢ م. حارب الخوارج وأوقع بهم، أخضع ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في دير الجماجم. أنشأ البريد، وعرب الدواوين، وصك النقود الذهبية.

الفتى : واللّه... واللّه... لا أريد هبة تذيلها لفظات التهديد والوعيد...
أما عفوك فبيد اللّه لا بيدك يا حجاج... لاجمعني اللّه حتى يلتقي
السامري[1] وموسى[2]
(وخرج لا يلوي على شيء).

○

---

(١) السامري: هو صاحب الفتة الذي صنع العجل من الذهب ليضل به بني إسرائيل فعاقبه الله في دنياه بأن أمر بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه وأوعده الله بجهنم وإن له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة يوم يساق إلى النار آثماً.

والسامريون: هم سكان السامرة أو سبسطية، يخالفون اليهود في نقاط عديدة منها. انهم لا يقرون من كتب الوحي إلا أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة، ويقومون بعبادتهم على جبل جرزيم جنوبي شكيم أو نابلس.

(٢) موسى: النبي: بن عمران صفي الله وكليمه، بعثه الله جل شأنه منقذاً لبني إسرائيل من عذاب فرعون مصر، تزوج بنت شعيب. يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾هي: العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، وفلق البحر. قال الثعلبي: وكان عمر موسى عليه السلام حين توفي مائة وعشرين سنة.



○ حروف المعجم ○

حكي أن عبـد الملك بن مـروان جلس يـوماً، وعنـده جماعـة من خواصـه وأهـل مسامرته. فأحب أن يداعبهم فقال لهم:

عبد الملك : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه، وله علي ما يتمناه؟

(فقام إليه سويد بن غفلة[1] وقال له):

سويد : أنا لها يا أمير المؤمنين.

عبد الملك : هات.

سويد : أ = أنف.

ب = بطن.

ت = ترقوة.

ث = ثغر.

جـ = جمجمة.

حـ = حلق.

خ = خد.

د = دماغ.

ذ = ذقن.

---

(١) سويد بن غفلة: بن عوسجة الجعفي، كان شريكاً لعمر بن الخطاب في الجاهلية، وعاش في البادية، أسلم، ودخل المدينة يوم وفاة الرسول ﷺ، وشهد القادسية ثم كان مع علي في معركة صفين، سكن الكوفة ومات فيها أيام الحجاج، كان فقيهاً إماماً، مات وهو ابن ١٢٥ سنة.

ر = رقبة.

ز = زند.

س = ساق.

ش = شفة.

ص = صدر.

ض = ضلع.

ط = طحال.

ظ = ظهر.

ع = عين.

غ = غبب[1].

ف = فم.

ق = قفا.

ك = كف.

ل = لسان.

م = منخر.

ن = نغنع[2].

هـ = هامة.

و = وجه.

ي = يد.

سويد : وهـذه آخر حروف المعجم، والسلام على أميـر المؤمنين. فضحـك عبد الملك، وأنعم عليه، وبالغ في إحسانه.

---

(١) غبب: اللحم المتدلي تحت الحنك.

(٢) نغنع: لحمة في الحلق.

○ محاورة طريفة ○

جاء رجل لزيارة هشام القرطبي فأحب هذا الرجل أن يسأل مضيفه هشام عن عمره، فدارت بين الاثنين هذه المحاورة الطريفة.

الضيف : كم تعد؟

هشام : من واحد إلى ألف وأكثر.

الضيف : لم أرد هذا، كم تعد من السن؟.

هشام : أعد اثنين وثلاثين: ست عشرة في حلقي، وست عشرة في أسفل الحلق.

الضيف : لم أرد هذا، وإنما أريد أن أسألك كم لك من السنين؟.

هشام : ليس لي منها شيء، السنون كلها للّٰه.

الضيف : يا هذا... ما سنك؟

هشام : عظم.

الضيف : أبِنْ لي... ابن كم أنت؟.

هشام : ابن اثنين، رجل وإمرأة.

الضيف : ليس هذا، وإنما أريد أن أقول: كم أتى عليك؟

هشام : لو أتى علي شيء لقتلني.

الضيف : كيف أقول؟

هشام : تقول كم مضى من عمرك؟.

○

○ الزوجة العاقلة ○

هـذه القصة سـوف تمـلأ قلبـك روعـة وإيماناً، لما للمرأة يـومذاك من سمـاحة في الـرأي، ووفـور في الحـريـة، وسمـو في المنزلة.

ذلك أن سيد العرب الحارث بن عـوف المُرِّي[1] قال لمن حوله:

الحارث : أترونني أخطُبُ إلى أحد فيردنـي؟

أحدهم : نعم.

الحارث : ومن ذاك؟

أحدهم : أوس بن حارثة الطائي

الحارث : (لغلامه) إرحل بنا إليه.

(فركبا ومعهما خارجة بن سنان ، حتى أتوا أوساً في بلاده، فألفوه في منزله. فلما رأى الحارث قال):

أوس : مرحباً بك يا حارث.

الحارث : وبك.

---

(١) الحـارث بن عوف المـري: من فرسـان الجاهليـة، لـه فيهـا أخبـار، أدرك الإسـلام وأسلم، وله خبر فيها بعد إسلامه. قال فيه حسان بن ثابت شعراً أورده ابن عبد البر.

الحارث : جئتك خاطباً.

أوس : لست هناك.

(فانصرف الحارث ولم يكلمه. ودخل أوس على امرأته مُغضباً فقالت له): .

امرأته : مَنْ رجلٌ وقف عليك فلم تُطِلْ ولم تُكلِّمه؟

أوس : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف المري.

امرأته : فما لك لا تَسْتَنزِله؟.

أوس : إنه استحمق[1].

امرأته : وكيف؟.

أوس : جاءني خاطباً.

امرأته : أفتريد أن تزوج بناتك؟.

أوس : نعم.

امرأته : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟.

أوس : قد كان ذلك.

امرأته : فتدارك ما قد كان منك.

أوس : بماذا؟.

امرأته : تلحقه فترده.

أوس : وكيف وقد فرط ما فرط[2]؟.

امرأته : تقول له: «إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تُقَدِّم منّي فيه قولاً[3]، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف، ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيفعل.

(فركب في أثرهما، وفيما هم سائرون حانت منهم التفاتة فشاهدوا أوساً في أثرهم. فقال خارجة):

---

(١) استحمق: صار إلى الحمق.

(٢) فرط: تعجل بالكلام وسبق بغير روية.

(٣) أي أنك صار حتني بالأمر من غير تمهيد له.

خارجة : هذا أوس بن حارثة في أثرنا.

الحارث : وما نصنع به؟ امضِ.

(فصرخ حارثة قائلاً):

حارثة : ارْبَعْ عَلَيَّ ساعة[1].

(فتوقفوا، وكلمهم بالحديث الذي جرى بينه وبين زوجته، فرجع الجميع مسرورين. ولما دخل أوسُ منزله نادى زوجته وقال لها):

حارثة : ادعي لي فلانة ـ كبرى بناته ـ

(فلما حضرت ومثلت بينهم قال لها والدها):

حارثة : يا بنيّة، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟.

الكبرى : لا تفعل.

حارثة : ولمه.؟

الكبرى : لأني امرأة في وجهي ردّة[2] أو في خلقي بعض العهدة[3] ولست بابن عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ من ذلك ما فيه.

حارثة : قومي بارك اللّه عليك. ادعي لي فلانة ابنته الوسطى.. (فدعتها، ثم قال لها مقالته لأختها، فأجابته بمثل جوابها وأضافت):

الوسطى : إني خرقاء[4]، وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ من ذلك ما تعلم، وليس بابن عمي فيرعى حقي، ولا جارك في البلد فَيَسْتَحْييك.

حارثة : قومي، بارك اللّه عليك. ادعي لي «بُهَيْسَه» ابنته الصغرى.

---

(١) أربع علي: قف بي.

(٢) الردة: القبح.

(٣) العهدة: العيب.

(٤) الخرقاء: التي لا تحسن ما تصنع.

(فلما أتيَ بها، قال لها ما قال لهما، فقالت):

بهيسة : أنت وذاك.

حارثة : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه.

(ولم يذكر لها مقالتيهما).

بهيسة : لكنني واللّه الجميلة وجهاً، الصّنَاع[2] يداً، الرفيعة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلف اللّه عليه بخير.

حارثة : بارك اللّه عليك.

(فقال حارثة مخاطباً ضيوفه قائلاً)

حارثة : قد زوجتك يا حارث «بُهيسة» بنت أوس.

الحارث : قد قبلت.

(فأمر حارثة أمها أن تهيئها وتُصلح من شأنها، حتى إذا حُمِلت إلى زوجها وبلغ بها حِمَاه كانت حرب داحِس والغبراء[3] بين عبس

---

(١) الصناع يداً: الحاذق الماهر الذي يعمل بيديه.

(٢) داحس والغبراء: فرسان أولهما لقيس بن زهير العبسي، والثانية لحذيفة بن بدر الفزاري وكلا الرجلين سيد قومه. وكان من حديث الفرسين أن رجلاً من عبس بارى اخر فزارياً في أي الفرسين أعتق وأسبق، وكلاهما يؤثر فرس صاحبه، ثم افترقا متراهنين عليهما عشراً بعشر. أي يبتدىء الرهان بعشر ثم يضاعف أضعافاً إذا اجتمع الفريقان. قالوا: وبلغت مقالة الرجلين قيساً وحذيفة فضاعفا في الرهان حتى أبلغاه إلى مائة، وتواعدا على السباق بعد أربعين يوماً، وأن يكون مداه مائة غلوة ـ والغلوة مدى السهم ـ وأودعا الإبل رجلاً من بني ثعلبة يعطيها لمن حكم بالسبق له. فلما كانت الليلة التي سيستبقان في صبيحتها أكمن حمل بن بدر (أخو حذيفة) وفتياناً من قومه في شعب من الشعاب المشرفة على المضمار، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوه عن غايته وقد أمضوا في الصباح ما بيتوه في المساء. فبرز فتى منهم إلى داحس ـ وكان قد جاء سابقاً ـ فلطمه فكبا، فسبقت الغبراء، فلما انتهى الفارسان إلى الغاية تلاحيا، وقال كلٌ: أنا أحق بالسبق، ثم تراضيا على أن يكون الرهان لقيس، وعلى أثر ذلك جاء رجال من فزارة فلاموا حذيفة على نزوله عن حقه، وأشعروه الندم، فأرسل ابنه إلى قيس يطلب منه حق أبيه، فقتله قيس، وقتل حذيفة مالكاً أخا قيس. فثارت لذلك حرب داحس والغراء، واجتمعت ذبيان بأسرها إلى لواء حذيفة، وجدت عبس لنصرة قيس، ودامت الحرب ناشبة دهراً طويلاً.

وذبيان قد عصفت هَوْجَاؤها[1] بهم، واشتدت نارها فيهم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم[2]. وهَيم من يليهم من العرب بأن يكتَووا بضَرامها، ويصطلوا بلظاها[3] فلما بصرت به مرتدياً مطارف[4] العُرس قالت له):

بهيسة : واللّه لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك!

الحارث : وكيف؟.

بهيسة : أتفرُغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً.

الحارث : فيكون ماذا؟

بهيسة : آخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم.

(فخرج لساعته إلى صاحبه خارجة بن سنان، وقصّ عليه حديث امرأته فقال له خارجة):

خارجة : واللّه إني لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاً فاخرج بنا إليه.

(فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا حمائل[5] القوم وَديّات قتلاهم، فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين[6].

ذلك ما بلغته المرأة يومذاك من سموّ في الوجود، وإكبار للرأي وبلوغ من النفس.

○

---

(١) عصفت هوجاؤها: الهوجاء من الريح: الشديدة الهبوب والتي تقلع البيوت.

(٢) الرميم: العظم البالي.

(٣) يصطلوا بلظاها: أي اشتووا بلهيبها.

(٤) المطارف: جمع مُطرف: وهي من الخز مربعة وذات أعلام.

(٥) الحمائل: جمع حمالة: وهي الديات يدفعها قوم عن قوم.

(٦) الأغاني: الجزء ٩ صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣.



○ ملك لا يُظلم عنده أحد ○

عندما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من اللّه ومن عمه أبي طالب[1] وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل اللّه لكم فرجاً مما أنتم فيه»[2]

فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة. وفراراً إلى اللّه بدينهم. فكانت أول هجرة في الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين[3] عثمان بن عفان[4]

---

(١) أبو طالب: بن عبد المطلب (عبد مناف) عم النبي ووالد الإمام علي كرم الله وجهه، كفل الرسول الحبيب بعد وفاة جده عبد المطلب، ورعاه وقام على تنشئة، ولم يصدعه برسالته وصدقه، كان كبير المقام، يهابه الجميع.

(٢) رواه ابن إسحاق في ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة الجزء ١ صفحة ٣٢١.

(٣) هي الهجرة الأولى إلى الحبشة.

(٤) عثمان بن عفان: ثالث الخلفاء الراشدين ٢٣ ـ ٣٥ هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) قرشي من عائلة أمية، من تجار مكة الكبار، اعتنق الإسلام باكراً على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تزوج برقية بنت النبي ﷺ ثم بأم كلثوم أختها رضي الله عنهما، بويع بالخلافة بعد وفاة عمر، جمع القرآن وقتل إثر فتنة.

رضي الله عنه ومعه امرأته رقية[1] بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة[2] ومعه امرأته سهلة بنت سهيل[3]، والزبير بن العوام، ومصعب ابن عمير[4]، وعبد الرحمن بن عوف[5]، وأبو سلمة بن عبد الأسد[6] وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية[7] وعثمان بن مظعون[8] وعامر بن ربيعة[9] ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة[10] وأبو سبرة بن أبي

---

(١) رقية: هي ابنة الرسول الحبيب محمد ﷺ، كانت مخطوبة لعتبة بن أبي لهب عم الرسول وعدوه، فتركته إثر نزول الآية الكريمة في حقه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فتركته وتزوجها عثمان بن عفان وهاجرا سوياً إلى الحبشة. ثم عادا إلى المدينة بعد الهجرة، توفيت رحمها الله يوم ورود الخبر بالنصر في معركة بدر.

(٢) حذيفة بن عتبة:

(٣) سهلة بنت سهيل، بن عمرو القرشية العامرية، من فواضل النساء في عصرها، اسلمت قديماً وبايعت الرسول ﷺ، روت عن النبي، وروى عنها القاسم ابن محمد.

(٤) مصعب بن عمير: قرشي من بني عبد الدار، صحابي شجاع، كان من المترفين في قومه، أسلم سراً، وأوذي في سبيل إسلامه، حمل لواء المسلمين في معركة بدر وأحد حيث استشهد سنة ٣ هـ.

(٥) عبد الرحمن بن عوف: قرشي زهري، كان تاجراً واسع الثراء، من أكابر الصحابة، ثامن من أسلم من مكة ومن العشرة المبشرين بالجنة. روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة توفي في سسنة ٣٢ هـ.

(٦) أبو سلمة بن عبد الأسد: مخزومي، قرشي، كان قديم الإسلام، شهد بدراً وأحداً وجرح بها. ثم اندمل جرحه لكنه انتفض فمات متأثراً به.

(٧) أم سلمة بنت أبي أمية: تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاة زوجها سنة ٤ هـ. كانت صاحبة غيرة شديدة، فدعا رسول الله ﷺ أن يذهب الله عنها الغيرة. فكانت في النساء كأنها ليست فيهن لا تجد ما يجدن من الغيرة.

(٨) عثمان بن مظعون: (أبو السائب القرشي الجمحي) صحابي من الشجعان، كان من حكماء العرب في الجاهلية، قاتل في بدر وتوفي بالمدينة سنة ٢ هـ الموافقة ٦٢٤ م.

(٩) عامر بن ربيعة: من المسلمين الأوائل، أسلم قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم، شهد بدراً والمشاهد كلها مع الرسول الأعظم ﷺ.

(١٠) ليلى بنت أبي حثمة: من فواضل النساء، أسلمت قديماً، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، يقال إنها أول ظعينة دخلت المدينة في الهجرة وصلت القبلتين.

رُهم   وسهيل بن بيضاء

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة [١]

ثم خرج جعفر بن أبي طالب [٢] رضي الله عنه، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج لنفسه لا أهل له معه [٣].

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانون رجلاً وامرأة.

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة:

يا راكباً بلغن عني مغلغلة
من كان يرجو بلاغ اللَّه والدين
كلَّ امرىء من عباد الله مضطهدٍ
ببطن مكة مقهورٍ ومفتون
إنّا تبعنا رسولَ اللَّه واطّرحوا
قول النبي وعالوا في الموازين

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن

---

(١) جعفر بن أبي طالب: صحابي هاشمي من الشجعان، وابن عم الرسول الأعظم محمد ﷺ، حامل لواء الإسلام في معركة مؤتة، لم يتركه حتى بترت يده واستشهد عام ٨ هـ الموافق ٦٢٩م، كناه الرسول ﷺ بذي الجناحين.

(٢) كان عليهم عثمان بن مظعون.

(٣) وهي الهجرة الثانية إلى الحبشة.

يبعثـوا فيهم، منهم رجلين من قـريش جَلْدين[1] إلى النجـاشي[2] فيـردهم عليهم، ليفتنوهم عن دينهم، ويخـرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيهـا، فبعثوا عبـد الله بن أبي ربيعة[3]، وعمرو بن العـاص بن وائل، وجمعـوا لهما هـدايـا للنجـاشي ولبـطارقتـه[4] ثم بعثوهما إليه فيهم.

فقـال أبو جعفـر يخاطب النجـاشي حين رأى ذلك من رأيهم ومـا بعثوا معهما.

ألا ليت شعـري كيف في النـأي جعفـر
وعـمـرو وأعـداء الـعـدو الأقـاربُ[5]
تـعـلّمْ بـأن اللّه زادك بـسـطة
وأسـبـاب خيـر كـلهـا بـك لازب[6]

عن أم سلمـة بنت أبي أميـة بن المغيـرة[7] زوج رسـول اللّه ﷺ قالت:

لما نزلنـا أرض الحبشة، جـاورنا بهـا خير جـار، النجاشي، أمنـا على ديننا، وعبدنا اللّه تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلـك قريشـاً ائتمروا بينهم أن يبعثـوا إلى النجاشي فينـا رجلين منهم جلدين. وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكـان

---

(١) الجلد: أي القوي، من جلادة.

(٢) النجـاشي: ملك الحبشة وعـظيمها، كـان ذا عقل راجـح، كان نصـرانياً، لكنـه آمن برسالة الرسول محمد ﷺ وآمن بتعاليمه من خلال المناظرة التي جرت بين المسلمين ومشركي مكة.

(٣) عبد الله بن أبي ربيعة:

(٤) البطارقة: من بطرك وبطريرك، وبطريك، رئيس رؤساء الأساقفة عند النصارى

(٥) النأي: البعد والمفارقة.

(٦) لازب: اللازم الثابت. يقول تعالى في سـورة الصافـات الآية ١١ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من طينٍ لاَزِبٍ﴾

(٧) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة: تقدم تعريفها.

من أعجب ما يأتيه منها الأدم[1]، فجمعوا له أدماً كثيراً. ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً[2] إلا أهدوا له هدية.

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة. وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما:

قريش : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

(فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم):

الوفد : إنه قد ضوى[3] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم. فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً[4] وأعلم بما عابوا عليهم.

البطارقه : نعم.

(ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له):

الوفد : أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوهم فيه.

---

(١) الأدم: الجلود.

(٢) بطريقاً: قائداً.

(٣) ضوى إليه: لجأ وأوى إليه.

(٤) أعلى بهم عيناً: أي أبصر به.

البطارقه : صدقا أيها الملك. قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ليردُّوهم إلى بلادهم وقومهم.

(فغضب النجاشي ثم قال):

النجاشي : لاها اللّه[1]. إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

(ثم أرسل إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض):

المهاجرون: ما تقولون للرجل، إذا جئتموه؟

المهاجرون: نقول واللّه ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً في ذلك ما هو كائن.

(فلما دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم):

النجاشي : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

جعفر : أيها الملك... كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول

---

(١) لا ها الله : أي لا والله.

الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات[1].

وأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من اللّه فعبدنا اللّه وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا ما كن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

النجاشي : هل معك مما جاء به عن اللّه من شيء؟.

جعفر : نعم.

النجاشي : فاقرأه علي.

جعفر : كٓهيٰعٓصٓ، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكريا، إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَاً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرَاً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّاً يرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[2].

(فبكى النجاشي حتى اخضلت[3] لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم).

النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة[4] واحدة! انطلقا فلا واللّه لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون[5].

عمرو : (وهو خارج) واللّه لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم[6].

---

(١) قذف المحصنات: اتهام العفيفات بالزنا.

(٢) سورة مريم الأيات ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ.

(٣) اخضلت: ابتلت من الدموع.

(٤) مشكاة، الكوة عبر النافذة، أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد.

(٥) يكادون: من الكيد أي لا يكيدهم أحداً.

(٦) خضراؤهم: أي شجرتهم التي تفرعوا منها.

عبد الله : لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

عمرو : لا واللّه لأخبرنه أنهم يزعمون أن المسيح عيسى بن مريم عبد.

(وفي اليوم الثاني اجتمع عمرو بن العاص مع النـجاشي وقال له):

عمرو : أيها الملك إنهم يقولـون في عيسى بن مريم قـولاً عظيمـاً، فأرسـل إليهم فسلهم عما يقولونه فيه؟.

(فأرسل النجاشي إليهم ليسألهم عن هذا الأمر).

النجاشي : ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ يقول: هو عبد اللّه ورسولـه وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول[1]

(فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال):

النجاشي : واللّه ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود[2]

(فتناخرت[3] بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال):

النجاشي : وإن نخرتم واللّه، اِذهبوا فأنتم شيوم بأرضي[4]. من سبكم غَرِم، من سبكم غَرِم، ما أحب أن لي دَبْراً[5] من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها.

(فخرجا من عنده مقبوحين[6] مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[7].

---

(١) العذراء البتول: العذراء المنقطعة عن الأزواج الطاهرة.

(٢) هذا العود: أي مقدار العود.

(٣) تناخرت: نخراً ونخيراً، مدّ الصوت من خياشيمه وصوّت فهو ناخر.

(٤) شيوم: أو سيوم: أي آمنون.

(٥) الدبر: بلغة الحبشة: الجبل.

(٦) مقبوحة: من القباحة والقبح.

(٧) سورة الحج الآية ٣٨.

○ أرطبون العرب ○

لما فتح عمرو بن العاص(١) قيسارية(٢) سار حتى نزل غزّة(٣) فبعث إليه علجها(٤) قائلاً:

العلج : ابعث إلي رجلاً من أصحابك أُكلمه.

(ففكر عمرو وقال):

عمرو : ما هذا أحد غيري!!

(فخرج حتى دخل على العلج، فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله فقال العلج):

العلج : حدثني هل في أصحابك أحد مثلك..

عمرو : لا تسأل عن هذا، إني هيّن عليهم، إذ بعثوا بي إليك وعرّضوني له ولا يدرون ما تصنع بي.

---

(١) عمرو بن العاص: قائد عربي كبير ومن دهاتهم، انتصر على البيزنطيين في أجنادين (بفلسطين)، وفتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس، وبابليون، فتح الإسكندرية عام ٦٤٢م وحكم مصر، بنى مدينة الفسطاط، واشترك في التحكيم الذي عقب معركة صفين، فرجح بدهائه كفة معاوية، توفي في القاهرة عام ٤٣هـ الموافق ٦٦٤م.

(٢) قيسارية: كانت في الماضي من أمهات المدن، فتحها العرب قسراً، تقع على ساحل بحر الشام، وتعد في أعمال فلسطين، تقع بالقرب منها بحيرة طبرية. ينسب إليها أدباء يكنون بالقيسراني. (معجم البلدان الجزء ٤ صفحة ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٣) غزة: تقع على البحر في فلسطين، وهي تقرب إلى القطر المصري، فيها ولد الإمام الشافعي وفيها مات هاشم بن عبد مناف جد الرسول الأعظم محمد ﷺ.

(٤) العلج: الرجل الضخم القوي من العجم.

(فأمر لَهُ بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب وقال له):

العلج : إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه.

(فخرج من عنده، فمر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال):

الغساني : يا عمرو! قد أحسنت الدخول، فأحسن الخروج.

(ففطن عمرو لما أراده، فرجع فقال له الملك):

العلج : ما ردّك إلينا؟.

عمرو : نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يَسَع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد.

العلج : صدقت، عجّل بهم.

(وبعث إلى البواب يقول له أن خَلِّ سبيله فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمِنَ قال):

عمرو : لا عدت لمثلها أبداً.

(فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج، قال له):

العلج : أنت هو؟

عمرو : نعم. على ما كان غدرك.

○ سُويبط ونُعيمان ○

قالت أم سلمة رضي اللّه عنها:

خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تجارة إلى البصرة. قبل وفاة النبي ﷺ. ومعه سُوَيْبِط بن حَرْمَلَة[1] وكان قد شهد بدراً - ونعيمان[2] وكان سويبط على الزاد، وكان نعيمان مَزّاحاً.

فقال نعيمان:

نعيمان : أطعمني.

سويبط : حتى يجيء أبو بكر.

نعيمان : أما لأغيظنك!!

(فمروا بقوم، فقال نعيمان لهم):

نعيمان : أتشترون مني عبداً؟.

القوم : نعم.

نعيمان : إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم إنه حرّ، فإذا قال هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليّ عبدي.

---

(١) سويبط بن حرملة: وقيل: سويبط بن سعد حرملة، هاجر إلى الحبشة. وشهد بدراً.

(٢) نعيمان: هو أبو عمرو نعيمان بن عمرو الأنصاري النجاري، من قدماء الصحابة وكبرائهم، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها، كان كثير المزاح، وكان النبي ﷺ يضحك من مزاحه، وكان رجلاً صالحاً، على ما فيه من مزاح ودعابة مات في زمن معاوية.

القوم : بل نشتريه.

(فاشتروه بعشرة قلائص[1] ثم أخذوه فوضعوا في عنقه حبلاً، فقال سويبط):

سويبط : إني حر، ولست بعبد، وهذا يستهزىء بكم.

القوم : قد خبرنا خبرك.

(وانطلقوا به. فجاء أبو بكر فأخبروه الخبر فاتبع القوم فرد عليهم القلائص، وأخذ منهم سويبطاً.

ولما قدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، ضحك وأصحابه حوله)

○

(١) القلائص: جمع قلوص. وهي الفتية من الإبل.

○ جابر عثرات الكرام ○

روى ابن حجة الحموي[1] قائلاً:

كان في أيام سليمان بن عبد الملك[2] رجل يقال له خُزَيمة بن بشر من بني أسد، مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة، فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسيهم[3] ويتفضل عليهم، فواسوه حيناً ثم ملّوه.

فلما لاح له تغيُّرهم جاء امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها:

خزيمة : قد رأيت من إخواني تغيّراً وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت.

(ثم أغلق عليه. وأقام يتقوّت بما عنده حتى نَفد، وبقي حائراً في حاله.

(١) ابن حجة الحموي: هو الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي، صاحب كتاب ثمرات الأوراق، وهو كتاب يشتمل علم زبدة ما يحتاج إليه في المجالس والمحافل من النوادر والحكايات. توفي عام ٨٣٧ هـ.

(٢) سليمان بن عبد الملك: سابع الخلفاء الأمويين (٩٦ هـ/ ٧١٧م) أسس مدينة الرملة بفلسطين، حاصر مدينة القسطنطينية ولم يقوى على فتحها، كان ذا عقل راجح، توفي في دابق عام ٩٩ هـ الموافق ٧١٧م.

(٣) يواسي: يؤازر.

وكان عكرمة الفياض[1] والياً على الجزيرة، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد، إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر فقال عكرمة):

عكرمة : ما حاله؟

الجماعة : صار في أسوأ الأحوال، وقد أغلق بابه ولزم بيته.

عكرمة : فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً؟!..

(فلما كان الليل... عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته وخرج سراً من أهله. فركب ومعه غلام واحد يحمل المال. وسار حتى وقف بباب خزيمة، فأخذ الكيس من الغلام، ثم أبعده عنه، وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه. فخرج خزيمة، فقال له):

عكرمة : أَصْلِحْ بهذا شأنك.

(فتناوله خزيمة فرآه ثقيلاً فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له):

خزيمة : من أنت جُعلت فداك؟.

عكرمة : ما جئت في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني.

خزيمة : فما أقبله أو تخبرني من أنت؟.

عكرمة : أنا جابر عثرات الكرام.

خزيمة : زدني.

عكرمة : لا.

(ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها):

خزيمة : أبشري فقد أتى اللّه بالفرج. فلو كان في هذا فلوس كانت كثيرة. قومي فأسرجي[1].

امرأته : لا سبيل إلى السراج.

---

(١) عكرمة الفياض: من أجود العرب وما سمي الفياض إلا للإفراط في الكرم.

(٢) أسرجي: أي أشعلي السراج، أي القنديل.

(فبات يتلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير. أما عكرمة فرجع إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه، فأُخبرت بركوبه منفرداً، فارتابت ولطمت خدها، فلما رآها على تلك الحالة قال لها):

عكرمة : ما دهاك يا بنت العم؟.

زوجته : سوء فعلك بابنة عمك، أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة[2] من الليل منفرداً عن غلمانه في سرٍّ من أهله إلّا إلى زوجة أسرّية؟.

عكرمة : لقد علم اللّه ما خرجت لواحدة منهما.

زوجته : لا بُد أن تعلمني.

عكرمة : فاكتميه إذاً.

زوجته : أفعل:

(فأخبرها بالقصة، على وجهها ثم قال):

عكرمة : أتحبين أن أحلف لك؟.

زوجته : لا . . . قد سكن قلبي.

(ثم لما أصبح خزيمة صالح غرماءه، وأصلح من حاله ثم تجهز يريد الخليفة سليمان بن عبد الملك بفلسطين، فلما وقف ببابه، دخل الحاجب فأخبره بمكانه، وكان مشهوراً بمروءته، وكان الخليفة به عارفاً فأذِن له، فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال له:

سليمان : يا خزيمة . . ما أبطأك عنا؟.

خزيمة : سوء الحال يا أمير المؤمنين.

سليمان : فما منعك من النهضة إلينا؟.

خزيمة : ضعفي.

سليمان : فمن أنهضك؟.

خزيمة : لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابي

(٢) هدأة من الليل: سكون الحركة في الليل.

وكان منه كَيتَ وكَيتَ.

(وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها).

سليمان : وهل عرفته؟.

خزيمة : لا واللّه لأنه كان متنكراً وما سمعت منه إلا «جابر عثرات الكرام».

(فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال):

سليمان : لو عرفناه لأعنّاه على مروءته.

(وعقد سليمان لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة[1] الفياض، وأجزل عطاياه، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة فخرج خزيمة متوجهاً إليها. فلما قَرُب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه، فسلم عليه، ثم سارا إلى أن دخل البلد. فنزل خزيمة في دار الإمارة. وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يُحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير. فطالبه خزيمة بالمال فقال له):

عكرمة : ما لي إلى شيء منه سبيل.

(فأمر بحبسه، ثم بعث يطالبه فقال عكرمة):

عكرمة : إني لست ممن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت.

(فأمر خزيمة أن يُكبَّل[2] بالحديد، وضيّق عليه، وأقام على ذلك ابنة عمه، فأضناه[3] ثقل الحديد وأضر به، وبلغ ذلك ابنة عمه، فجزعت[4] عليه واغتمت[5] ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت لها):

زوجة عكرمة: امض الساعة إلى باب هذا الأمير فقولي: عندي نعيمة فإذا طُلِبَتْ منك فقولي: لا أقولها إلا للأمير خزيمة، فإذا دخلت عليه فسليه

---

(١) على عمل عكرمة: أي محاسبته على أعماله.

(٢) يُكبّل: يقيد.

(٣) أضناه: أثقله.

(٤) جزعت: خافت. فقدت الصبر.

(٥) اغتمت: حزنت.

الخلوة[1]، فإذا فعل فقولي له: ما كان هذا جزاء «جابر عثرات الكرام» منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد.

(ففعلت ذلك، فلما سمع خزيمة قولها قال):

خزيمة : واسوءتاه! «جابر عثرات الكرام» غريمي؟

الجارية : نعم.

(فأمر من وقته بدابته، فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد، فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس، ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في الحبس متغيراً قد أضناه الضُرّ، فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى الناس أحشمه[2] ذلك، فنكس رأسه، فأقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله، فرفع رأسه إليه وقال):

عكرمة : ما أعقب هذا منك؟

خزيمة : كريم فعلك وسوء مكافأتي.

عكرمة : يغفر اللّه لنا ولك.

(ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رجليه فقال عكرمة):

عكرمة : تريد ماذا؟.

خزيمة : أريد أن ينالني من الضرّ مثل ما نالك.

عكرمة : أقسم عليك باللّه ألا تفعل.

(فخرجا إلى أن وصلا إلى دار خزيمة، فودّعه عكرمة وأراد الانصراف، فلم يمكنه من ذلك قال):

عكرمة : وما تريد؟.

خزيمة : أغيّر من حالك، وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك.

(ثم أمر بالحمام فأخلي ودخلا. وتولى خزيمة خدمته بنفسه) ولما خرجا، خلع عليه، وحمل إليه مالاً كثيراً وسار معه إلى داره، واستأذنه

---

(١) سليه الخلوة: اطلبي منه الإنفراد.

(٢) أحشمه: يقال احتشم منه: استحيا وانقبض.

في الاعتـذار من ابنة عمـه، فأذن لـه، فاعتـذر إليهـا وتـذمم[1] من ذلك.

وبعد أيام سأل خزيمة عكرمـة أن يسير معـه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذ مقيم بالرملة[2]. فسارا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك. فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر، فراعه ذلك وقال):

سليمان : والي الجزيرة يَقْدُم علينا بغير أمرنـا مع قـرب العهد بـه إما هـذا إلا لحادث عظيم.

(فلما دخل عليه قال ـ قبل أن يسلم).

سليمان : ما وراءك يا خزيمة؟.

خزيمة : خير يا أمير المؤمنين.

سليمان : فما أقدمك؟.

خزيمة : ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أُسُرّك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته.

سليمان : ومن هو؟.

خزيمة : عكرمة الفياض.

(فأذن له في الدخول، فدخل فسلم عليه بالخلافة ورحب بـه وأدناه من مجلسه وقال له):

سليمان : يـا عكرمـة... كان خيـرك لـه وبـالاً عليـك... ثم قـال له، اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة.

(فكتبها وقضيت على الفور. وأمر له بعشرة آلاف دينار مـع ما أضيف

---

(١) تذمم: استنكف واستحيا.

(٢) الرملة: مدينة في فلسطين، تخـرج منها العـديد من الأدبـاء، كانت مـربطاً لجيـوش المسلمين، بنى فيها سليمان بن عبد الملك قصراً فخماً وداراً تعرف بدار الصباغين، وكان أول من بنى فيها مسجداً.

(٣) راع: خاف وفزع.

إليها من التُّحف، ثم دعا بقناة وعقد له[1] على الجزيـرة وأرمينية[2] وأذربيجان[3] وقال له):

سليمان : أمرُ خزيمة إليك إن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته.

عكرمة : بل أرده إلى عمله يا أمير المؤمنين.

(ثم انصرفا، ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته).

○

(١) كان من عادة الخلفاء إذا ولوا الوالي أن يعقدوا له راية برمح فيكون ذلك من شـارات التولية.

(٢) أرمينية: أنجاد وجبال وسهول في آسيا الصغرى، استولى عليها العرب بعد انتصارهم على البيزنطيين، تقاسمت هذه البلدة تركيا وروسيا.

(٣) أذربيجان: جمهورية في الإتحاد السوفياتي جنوب غرب القفقاس على بحر قزوين.



○ الحقُّ أنطقها والباطل أخرسه ○

عن قحطة بن حميد قال:
إني لواقف على رأس المأمون[1] يوماً،
وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه
ـ وقد هم بالقيام ـ امرأة عليها هيأة السفر،
وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه وقالت:

المرأة : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته.
(فنظر المأمون إلى يحيى بن الأكثم[2]) فقال لها يحيى:

يحيى : وعليك السلام، يا أمة اللّه، تكلمي بحاجتك فقالت:

المرأة : يـا خيـر مُنتصِف يُهـدى لـه الـرَّشَـدُ
ويـا إمـامـاً بـه قـد أشـرق الـبـلد
تشكو إليـك ـ عـميـدَ الـقـوم ـ أرملة

---

(١) المأمون: أبو العباس عبد الله من أعظم الخلفاء العباسيين (٧٨٦ ـ ٨٣٣ م) ولي الخلافة بعد أخيه الأمين الذي خلعه وأعلن البيعة لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق، فقام بينهما نزاع مسلح انتهى بقتل الأمين والبيعة للمأمون، وفي عام ٨١٧ م. بايع المأمون لعلي بن موسى الرضا بولاية عهده، وفي عهده شجع النهضة العلمية، فنشطت حركة الترجمة، وأسس بيت الحكمة، وعمل على جمع الكتب العربية والأجنبية فيها.

(٢) يحيى بن الأكثم: بن محمد بن قطن بن سمعان التميمي الأسدي المروزي القاضي لدى المأمون، وأحد أعلام الدنيا. قائم بكل معضلة، غلب على المأمون حتى أخذ بمجامع قلبه، وقلده القضاء وتدبير مملكته، وكان الوزراء لا يعملون شيئاً إلا بعد مطالعته، وكان يؤخذ عليه أنه كثير المزاح، عزله المعتصم سنة ٢٣٩ هـ.

عُـدِيَ عليهـا فلم يتـرك لهـا سَبِـدُ[1]

وابـتُـزَّ مني ضيـاعـي بعـد منعتـهـا

ظـلمـاً وفُـرِّق مـنـي الأهـل والـولـد

(فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وقال):

المأمون : فـي دون مـا قلت زال الـصبـر والـجلد

عـنـي وقُـرِّح مـنـي الـقـلبُ والـكـبـد

هــذا آذان صــلاة العصـر فـانصـرفي

وأحضـري الخصم في اليـوم الـذي أعِـدُ

فالمجلس السبت ـ إن يُقضى الجلوس لنا

ننصفك منــه ـ وإلا المـجلس الأحــد

(فلمـا كان يـوم الأحد جلس، فكـان أول من تقدم إليـه تلك المرأة قالت):

المرأة : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته.

المأمون : وعليك السلام، أين الخصم؟.

المرأة : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين.

(وأومأت إلى العباس ابنه).

المأمون : يا أحمد يا ابن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم.

(فجعل كلامها يعلو كلام العباس فقال لها أحمد بن أبي خالد).

أحمد : يـا أمـة اللّه إنـك بين يـدي أميـر المؤمنين وإنك، تكلمين الأميــر، فاخفضي من صوتك.

المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه.

(ثم قضى لهـا برد ضيعتهـا إليها، وظلم العبـاس بـظلمـه لهـا. وأمـر بـالكتاب لهـا إلى العامـل الذي ببلدهـا أن يوغـر[2] لهـا ضيعتهـا، ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

---

(١) السبد: الشعر، والمراد لم يترك لها شيء. (٢) يوغر لها ضيعتها: يسقط عنها خراجها.

○ قدر الأمير ○

دخل رجل بدوي عليه شعث[1] السفر، على داوود المهلبي وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه.

فلما فرغ من الطعام، وثب قائماً وأومى إليه، وقال:

داوود : من أنت يا فتى؟.

البدوي : شاعر قصيدتك بأبيات من الشعر.

داوود : مهلاً قليلاً.

(ثم دعا بقوس فأوترها[2]، وأومى إليه وقال له):

داوود : قل . . . فإن أنت أحسنت، خلعتُ وأجزلتُ.[3] وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع في أي موضع يقع فيه.

فتبسَّم البدوي وقال :

البدوي : آمنت بداوودٍ وجودِ يمينه
من الحَدِث المرهوب والبؤسِ والفقرِ
وأصبحت لا أخشى بداوود بنوة

---

(١) شعث: الشعر: تلبد وتغبر. تشع رأسه أو بدنه: اتسخ.

(٢) أوتر القوس: شد وترها، والوتر : شرعة القوس ومعكفها.

(٣) خلعت: خلع عليه خلعة: ألبسه ثوباً. اجزلت: أجزل له العطاء: أوسع وأكثر له بالهبات.

ولا حــدثــانــاً إن شــددت بــه أزري

لــه حـكـم لـقـمــان وصــورة يــوسـف

ومــلك سليــمــان وصــدق أبــي ذر[1]

فتى تهــرب الأمـوال من جــود كفــه

كمــا يهــرب الشيــطان من ليـلة القــدر

فقـوسـك قـوس الجـود والــوتـر النـدى

وسهمـك فيـه المـوت فـاقتـل بـه فقــري

(فضحك داوود، ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال):

داوود : يا فتى العرب، باللّه هل كان ذكر القوس في الأبيات؟

البدوي : لا واللّه.

(ففرح بذلك، وقال):

داوود : يـا فتى العرب، باللّه أيما أحب إليك، أعطيـك على قـدرك أم على قدري؟.

البدوي : بل على قدري.

داوود : كم على قدرك؟

البدوي : مائة ألف درهم.

فأمر له بها.

داوود : وما منعك أن تقول على قدري؟

البدوي : أيها الأمير، أردت أن أقول ذلك، فإذا الأرض لم تساو قدر الأمير، فطلبت على قدري!

داوود : للّه دَرُّك! واللّه إنّ نثرك لأحسنُ من نظمك! وأمر له بمائة ألفٍ ثانية، وأمره ألا ينقطع عنه.

---

(١) يعني بلقمـان: لقمـان الحكيم، وصـورة يـوسف: أي جمـال النبي يـوسف عليـه السلام، وملك سليمان: ملك النبي سليمان بـن داوود، وصدق أبي ذر: أي أبـو ذر الغفاري رضي الله عنه.

○ شروط الزواج ○

قال عبد الملك بن عمير[1]:

قدم علينا عمر بن هبيرة[2] الكوفة، فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة، فسمروا[3] عنده ثم قال:

عمر : ليحدثني كل رجل منكم أحدُوثَة، وابدأ أنت يا أبا عمرو.

عبد الملك : أصلح اللّٰه الأمير، أحديثَ الحقِّ أم حديث الباطل؟

عمر : بل حديث الحق!

عبد الملك : إن امرأ القيس[4] آلى[5] بألية الا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية

---

(١) عبد الملك بن عمير.

(٢) عمر بن هبيرة: أمير من الدهاة الشجعان بدوي أمي، صحب عمرو بن معاوية العقيلي في سيره لغزو الروم، فأظهر بسالة، وشارك في مقتل مطرف بن المغيرة المناوىء للحجاج بن يوسف وأخذ رأسه، فسيره به الحجاج إلى عبد الملك ابن مروان، فسر به عبد الملك، وأقطعه إقطاعاً ببرزة من قرى دمشق. تولى الجزيرة في خلافة عمر بن عبد العزيز.

(٣) سمر: لم ينم وتحدث مع جلسائه ليلاً.

(٤) امرؤ القيس: ولد في نجد وتوفي في أنقره، أول شعراء الجاهلية منزلة وصاحب المعلقة التي مطلعها: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وكان ابن جحدر الكندي ملك بني أسد، قتل أبوه، فهم في المطالبة بالثأر واستعادة الملك، فهرب من المنذر بن ماء السماء، فسمي بـ «الملك الضليل» ولجأ إلى السموأل في ثيماء، أصيب بأنقره بمرض كالجدري فسماه الرواة بـ «ذي القروح».

(٥) آلى: حلف أو أقسم.

وأربعة وثنتين. فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن: أربعة عشر.

فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه، فأعجبته فقال لها:

امرؤ القيس: يا جارية! ما ثمانية وأربعة واثنتان؟.

الابنة : أما ثمانية فأطباء[1] الكلبة، وأما أربعة فأخلاف[2] الناقة؛ وأما اثنتان فثديا المرأة.

(فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها، وشرطت عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وأن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك.

ثم بعث عبداً إلى المرأة وأهدي إليها نحياً[3] من سمن، ونحياً من عسل، وحلة من عُصْب[4] فنزل العبد ببعض المياه، فنشر الحلة ولبسها، فتعلقت بعشرة[5] فانشقت وفتح النحيين فطعِمَ أهلُ الماء منهما فنقصا.

ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف[6] فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها فقالت له):

الإبنة : أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرِّب بعيداً ويبعد قريباً، وأن أمي ذهبت لشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعاءكم نضبا[7]

(فقدم الغلام على مولاه فأخبره فقال له):

(١) الأطباء: حلمات الضرع عند الكلبة.
(٢) أخلاف: حلمات ضرع الناقة.
(٣) النحي: زق السمن.
(٤) العصب: ضرب من البرود سمي بذلك لأنه غزله يعصب أي يجمع ويشد.
(٥) العشرة: شجرة من فصيلة الصقلابيات، له صمغ ينبت في آسيا وبلاد العرب.
(٦) خلوف: غيب.
(٧) نضبا: أي نقصا.

امرؤ القيس: أما قولها «إن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً»: فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه. وأما قولها «ذهبت أمي تشق النفس نفسين»: فإن أمها تَقْبَل[1] امرأة نفساء. وأما قولها: «إن أخي يراعي الشمس»: فإن أخاها في سرح[2] له يرعاه فهو ينتظر وجوب[3] الشمس ليروح[4] به. وأما قولها «إن سماءكم انشقت»: فإن البرد الذي بعثت به انشق. وأما قولها «وعاءكم نضبا»: فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقني.

الغلام يا مولاي إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرت الحلة فانشقت، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء.

امرؤ القيس: أولى لك[5].

(ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلاً فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز، فإنه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أتى أهل المرأة بالإبل، وأخبرهم أنه زوجها.

الأهل : (للفتاة) قد جاء زوجك.

الفتاة : والله ما أدري أزوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جزوراً[6] وأطعموه من كرشها وذنبها.

(ففعلوا فأكل ما أطعموه).

الفتاة : اسقوه لبناً حازراً[7].

(فسقوه فشرب).

---

(١) قبلت المرأة: كانت قابلة، وقبلت القابلة الولد: تلقته عند الولادة.

(٢) السرح: الماشية.

(٣) وجوب الشمس: غروبها.

(٤) ليروح: ليرده إلى الراح.

(٥) أولى لك: عبارة يقصد بها التهديد والوعيد، وهي إلى الشر أقرب.

(٦) الجزور: ذكر وأنثى البعير.

(٧) اللبن الحازر: اللبن الحامض.

الفتاة : افرشوا له عند الفرث[٤] والدم.

(ففرشوا له فنام) فلما أصبحت أرسلت إليه وقالت له:

الفتاة : إني أريد أن أسألك.

الغلام : سلي عما شئت.

(فسألته... فلم يعجبها جوابه فقالت):

الفتاة : عليكم العبد، فشدوا أيديكم به.

(ففعلوا):

عبد الملك : وجاء قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حيه، فاستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى امرأته.

الأهل : (للفتاة) قد جاء زوجك!!

الفتاة : واللّه ما أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها.

(ففعلوا، فلما أتوه بذلك قال):

امرؤ القيس : وأين الكبد والسنام والملحاء[١].

(وأبى أن يأكل)

الفتاة : اسقوه حازراً.

(فأبى أن يشربه وقال):

امرؤ القيس : فأين الصريف[٢] والرثيئة[٣]

الفتاة : افرشوا له عند الفرث والدم.

(فأبى أن ينام وقال):

امرؤ القيس : افرشوا لي فوق القلعة[٤] الحمراء، واضربوا عليها الخباء.

---

(١) الفرث: ما يخرج من الكرش.

(٢) الملحاء: لحم من صلب البعير.

(٣) الصريف: الخالص وغير الممزوج.

(٤) الرثيئة: اللبن الحامض يخلط بالحلو.

(٥) القلعة: ما علا من الأرض.

(ثم أرسلت إليه وقالت له):

الفتاة : هلُمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث.

امرؤ القيس: سلي عما شئت.

(فسألته الفتاة فأعجبها جوابه فقالت):

الفتاة : هذا زوجي لعمري!! فعليكم به، واقتلوا العبد.

(فقتلوه، ودخل امرؤ القيس بالجارية)

ابن هبيرة : حسبكم!! فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن تأتينا بأعجب منه.

فقمنا وانصرفنا، وأمر لي بجائزة.

مكارم الأخلاق والوفاء

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ
فإن همو ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

قصة واقعية جرت حلقاتها في زمن الخليفة المأمون، وإليك هي:

أمرَ المأمون صاحب الشرطة في بغداد وهو العباس باستلام هذا الرجلِ المكبلِ بالحديد قائلاً:

المأمون: استوثق هذا الرجل واحذره وبكرّ به. أخذ العباس الرجل مكبلاً بالأغلال إلى داره خوفاً عليه من الهرب، فقال له:

العباس: من أين الرجل...؟

الرجل المكبل: من دمشق.

العباس: وهل تعرف فلاناً من الناس؟

الرجل المكبل: ومن أينَ عرفتَ ذلك الرجل؟

العباس: كنت في زمن مضى مع بعض الولاة، فخرج علينا أهلها، فهربت فيمن هربَ من القتل، فما زلت أعدو حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرتُ لك ـ وهو لا يعرفني ولا أعرفه ـ وكانَ جالساً على باب منزله فقلت: أغثني أغاثَك الله..! فأدخلني بيته وغرفة حريمه. ثم جاء الرجال وفتشوا المنزل، ونهرتهم زوجته فخرجوا ولم يعثروا عليَّ. ومكثت بعدها أربعة أشهر في

منزله بأحسن إكرامٍ وأحسن معاشرة حتى هدأت الفتنة. عندها طلبت منه الخروج إلى بغداد، فبعثني مع قافلة وزودني بكل ما أحتاجه، وبخمسة آلاف درهم وفرس وبغلةٍ وعبدٍ لخدمتي. وهو لم يعرف اسمي وكان يناديني بعبد الله. ووصلت بغداد سالماً وأنا أذكر جميل هذا الرجل ومنعني عملي ووظيفتي عن مكافأته. فلما سمع المكبل من العباس القصة قال:

المكبل: أنا ذاك الذي ذكرت، وتعرفا على بعضهما وأخبره المكبَّلُ عن سبب القبض عليه، بأن فتنة وقعت في دمشق ونسبت إليه وهو بريء. وقد خرجت من أهلي بلا وصية. وقد تبعني من عبيدي من يتعرَّف إلى منزلي ليخبر أهلي وهو نازل عند فلان. فلو تكرمت وبعثت إليه حتى يحضر فأخبره بما أريد، فإن فعلت ذلك فقد كافأتني بل جاوزت حدَّ المكافأة.

لكن العباس قام من فوره وفك القيود عن الرجل ثم أدخله الحمام وأكرمه وقبله وجهَّز له عشر أفراسٍ محملة وعشرة آلاف درهم، بالإضافة إلى كيس فيه خمسة آلاف دينار. ثم أمر أحد رجاله أن يهرب به إلى خلف الأنبار قائلاً للرجل الحر.

العباس: إنج بنفسك يا أخي وأنا أدبر أمري فقال الرجل المكبل بعد أن أصبح حراً.

الرجل الحر: والله لا أبرح من بغداد حتى أعلمَ خبرك. فابعث بي إلى مكان أمين.

ولما كان الصباح اغتسل العباس وتحنط وتكفن... وجاءت رسل المأمون باكراً تطلب الرجل المكبل. ودخل العباس على المأمون، فلما رأى

المأمون العباس لوحده. استشاطَ غضباً وطار شققاً وقال:

المأمـون: والله لأضـربن عنقكَ إن قلت أن الـرجل قـد هـرب. وتـوعـد وهدَّد. فقصصت عليه القصة وقلت؟

العباس: إمَّا أن تصفح عني وإمـا أن تقتلني، فأكـون قد كـافيته وفـديته بنفسي.

المأمـون: وقد تغير وجهه وسكت غضبه متعجباً مما سمع قـائـلاً لِمَ لا عرفتني خبره فكنت أنا أكافيه عنك؟

العبـاس: أقسم الرجل بالله.. أنه لا يبرح حتـى يعـرف سـلامتي، وهـو في مكان كذا، فإن احتيج إليه حضر.

المأمـون: والله هذه أعظم من الأولى. إذهب فوراً وأحضره معززاً مكرماً.

فلما مثـل المأمـون قام من مجلسـه وقبله وأكرمـه وخلع عليه وعـرض عليـه أعمال دمشق فاستعفاه. وأكرمـه بأفـراس ودواب محملة بالمـال والمتاع وزوده بكتاب لعامله بدمشق يوصيه به. وكان كلما ورد كتـاب من دمشق يقول المأمون للعباس: يا عباسُ.

هذا كتاب صديقك الشامي.

فانظر أيهم أوفى وأكرم وأنبل؟ المأمون أم العباس أم الرجل الشامي؟

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبـه بـالكـرام فـلاح

المراجع والمصادر

١ - **القرآن الكريم**.

٢ - **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** - محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣ - **مفتاح كنوز السنة** - محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤ - **التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح** - د. مصطفى البغا - دار اليمامة - دمشق.

٥ - **المعجم الوسيط** ١ - ٢ - إشراف عبد السلام هارون - مكتبة النوري.

٦ - **المعجم المدرسي** - وزارة التربية السورية.

٧ - **مختار الصحاح** - أبو بكر الرازي - دار الإيمان .

٨ - **المنجد في اللغة والاعلام** - دار المشرق - بيروت.

٩ - **معجم البلدان** - ياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠ - **مراصد الاطلاع** - ياقوت الحموي - دار المعرفة - بيروت.

١١ - **الموسوعة العربية الميسرة** - بإشراف محمد شفيق غربال - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢ - **الموسوعة العربية** - نجيب فريحة - دار الريحاني - بيروت.

١٣ - **اعلام النساء**. - الدكتور عمر رضا كحالة -

١٤ - **المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها** - عبد اللّه عفيفي - دار الرائد العربي - بيروت.

١٥ - **الأعلام** (قاموس تراجم) خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت.

١٦ - **أجوبة مسكتة** - أحمد صابر.

١٧ - **حدائق المتقين** - عبد الغني النكه مي - دار الكتاب النفيس - حلب.

١٨ - **لغتنا الجميلة** - فاروق شوشة - دار العودة - بيروت.

١٩ - **قطوف لغوية** - عبد الفتاح المصري - مؤسسة علوم القرآن.

٢٠ ـ **الأغاني** ـ أبو الفرج الأصفهاني . دار الكتب المصرية .
٢١ ـ **مختصر سيرة ابن هشام السيرة النبوية** ـ محمد عفيف الزعبي ـ دار النفائس ـ بيروت .
٢٢ ـ **أخبار الظراف والمتماجنين** ـ ابن الجوزي ـ دار الحكمة ـ دمشق .
٢٣ ـ **مئة أوائل من النساء** ـ سليمان البواب ـ دار الحكمة ـ دمشق .
٢٤ ـ **تهذيب الأسماء واللغات** ـ أبو زكريا محيي الدين النووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٢٥ ـ **صفة الصفوة** ـ ابن الجوزي ـ دار المعرفة ـ بيروت .
٢٦ ـ **درر وتحف من تراث السلف** ـ محمد علي السراج ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق .
٢٧ ـ **سجايا العرب** ـ حسن مغنية ـ مؤسسة عز الدين ـ بيروت .
٢٨ ـ **العقد الفريد** ـ ابن عبد ربه .
٢٩ ـ **معجم الأدباء** ـ ياقوت الحموي .
٣٠ ـ **أخبار الأذكياء** ـ ابن الجوزي . مكتبة الغزالي ـ دمشق .
٣١ ـ **الكشكول** ـ بهاء الدين العاملي ـ عيسى البابي ـ القاهرة .

الفهرس